

روايات ومجموعات القصص

# حكاية نشت

Looloo

سافاري

29

[www.dvd4arab.com](http://www.dvd4arab.com)

و. محمد خراساني

## مقدمة

(سافاري) مصطلح غريب تم تحريفه عن كلمة (سافرية) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافاري) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش في الأدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافاري) التي سنقابلها هنا كانت تصطاد المرض في القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهي .. وبينة معادية .. وأهل متشككين ..

بطلنا الذي سنقبله يوماً ، ونلقاه ، ونتعلم أن نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصري ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيداً وسط الأدغال (الكامبيون) ، وفي بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لا تنتهي في كل بقعة ..

وفي هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) .. نعيش معه تلك العالم العجيب الذي لم تتجح الحضارة في تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات الفتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرترقة للذين لا يمزحسون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعطاء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيينا الشاب كي يظل  
حيًا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبييًا ..

تعالوا نلحق بوحدة ( سافارى ) فى ( الكامبيرون ) ..

تعالوا ننخل الأدغال ونجوب ( السافانا ) ونلتقى البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق ( سافارى ) ..

★ ★ ★



## تمهيد كئيب نوعاً

( سافاري ) من جديد ...

كالت ( برنات ) الآن في نهاية بداية الحمل ..

لقد صار الحمل مرثياً نوعاً ، وإن كان أقرب إلى البدانة منه إلى أي شيء آخر .. وقد اعتاد جسدها ذلك الدخيل الغريب ، فكفت عن عادات الحوامل المفضلة في الصباح ، وصارت تَأْكُل جيداً .. طبعاً لا تتعاطى أي شيء حتى الفيتامينات لأنهم شديداً الحذر بهذا الصدد في الغرب ..

قامت ببضع زيارات للدكتورة ( ماي فاي لين ) .. لا أعرف كيف يتم التفاهم بينهما ، خاصة مع لغة الطببة التي يمكن أن نطلق عليها ( صينية مفرنسة ) أو ( فرنسية مصيئة ) .. وقد أجرت بعض فحوص بالأشعة التلفزيونية .. يبدو أن كل شيء على ما يرام ..

مازلت أجد غريباً أن كروموزومات أبي للموظف بالإدارة التعليمية - رحمه الله - مستمرة في رحم طبيبة كندية من الطرف الآخر في العالم ، ولسوف تمتزج بجيناتها لتصنع مخلوقاً فريداً من نوعه .. ترى هل تحمل كروموزوماتي مسحة من

كروموزومت امرأة بلقية أو شيخ من (تترقيا) أو مهرجا  
من (بومباي)؟ فى أى موضع منى توجد جينات ذلك الفلاح  
الفرعونى المسلم الجالس جوار قنيل ينتظر الفيضان ، ويحفر  
إبنة من التماسيح التى يتجسد فيها معبودهم (سبك)؟ وفى  
أى جزء توجد جينات ذلك الفاتح العربى الأسمر القادم من  
الجزيرة العربية مع جيش (عمرو بن العاص)؟

إن الأمر يثير الدوار حقاً ...

(مسافاري) من جديد ...

والحياة تمضى بذلك الانتظام المعهود .. اليوم مثل أمس ،  
وبشئ من الحظ يمكن أن يكون غداً مثل اليوم ما لم تمت  
جميعاً .. انتظام جميل .. انتظام خلاب .. انتظام ممل ..  
انتظام قاتل ..

حقاً لنا لؤمن أن عين ابن آدم لا يملؤها إلا التراب .. تُلرّجح  
بين عذاب التوتر والمخاطرة وعذاب الملل .. لو عشت فإن  
أمامى أربعين عاماً أخرى من الدراسة وغرفة الجراحة والغداء  
ومشاهدة التلفزيون مع (برنانت) ليلاً .. ربما يضيف الأطفال  
بعض البهجة على هذا الجو ، لكن هذا يعنى إضافة صخب  
الأطفال إلى هذه الفترة ..

الحقيقة إننى فى حالة نفسية غير طبيعية هذه الأيام ..  
 صرت أشجار بسهولة ، وهذا ليس جديداً عليكم .. لكن  
 حالتى تفاقمت نوعاً ، وقد خطر لى خاطر مرعب : إن حياة  
 الأخطار التى اعتنتها تلعب دور مأسورة العلام لدواتيتى  
 التى ولدت بها .. يقول علماء الاجتماع إن الحروب تقلل  
 للجريمة فى المجتمع ، بل إن أحدهم تجلسر وقال : أعط  
 الشباب حرباً جيدة يتلهون بها ..

حسن .. لا أعرف صحة هذه المقولة لكنى بحاجة إلى  
 مشاكل من أى نوع .. إنها تنطبق على الأقل ..

منذ دهر كف المدير عن استك على فى السابعة .. الموعد  
 الذى كنت لأخشاه وأرهبه وأتهرب منه صار اليوم عزيزاً  
 لى نفسى بشكل لا يوصف .. حتى اللعين (ليفى) كف عن  
 التحرش بى من فترة ، ويبدو أنه مشغول فى شيء مهم ..  
 ( آرثر شيلبى ) فى الولايات الآن يزور بعض معارفه ،  
 و ( بسام ) مشغول جداً بسبب بعض الخفقات الزائدة فى  
 قلبه تجعله يخشى أن يفحصه أحد ..

( هيلجا ) وحش المختبر الهائج على الدوام ، فى حالة  
 من الهدوء النسبى ، و ( سياتزاتى ) صار صوته خفيضاً  
 وكف عن مشاكلتى ..

وتذكرت كلمة ( برادبرى Bradbury ) فى ( أوديسة الفضاء ) : لا بد أن جرائد المدينة الفاضلة مملة جداً ..  
حقاً .. ماذا يحدث هنا ؟

★ ★ ★

وقلت فى الشرفة المظلة على ليل ( سافارى ) البهيم ..  
هناك مصابيح ( نيون ) لكنها لا تعكس قراحة قدر ما تعكس  
الوحشة والغربة . أنت تعرف هذه البقع الباردة من النور  
تنتشر وسط الظلام مع رائحة الليل الإفريقى الحريفة ..  
ولكن ..

لماذا أبكى ؟ لا أعرف .. أشد ما يفزعنى هو البكاء الذى  
لا سبب له ..

للحظة اتناهى ذلك الشعور المخيف الذى يطلقون عليه  
اسم ( جامى فو Jamais vu ) وهى لفظة فرنسية معناها  
( لم أر هذا من قبل ) .. إنه ذلك الشعور بالغربة والذعر ..  
من جاء به هنا ؟ ماذا أفعله هنا ؟ من هؤلاء ؟ ومن تلك  
المرأة التى تعيش معي ؟ تصور أن هذه ليست ( شبرا ) وأن  
المقهى ليس عند الناصية التالية ، وهذه الفتاة ليست ابنة





# الدائرة الأولى

## ثقب في الكون

### 1

الصبية يمرحون .. لانعرف السبب الذي دفع (جون ويلر) الصغير إلى الابتعاد عن رفاقه . هناك بين الأشجار زاح يزحف حتى وجد الشيء .. الشيء كان يشبه قلمًا غليظًا نوعًا ، يخرج منه حبل مغطى بمادة شمعية .

كان الإغراء أقوى من أن يقاومه طفل في العاشرة ..

بحث في جيوبه حتى وجد ما يريد .. كانت هناك علبة ثقاب وجدها أثناء لعبه أمس .. أخرج عودًا وحكه بالعلبة ، ثم انتظر حتى تعالت الشعلة .. قربها من الحبل وراقب النار وهي تتساب متجهة نحو الإصبع في شغف ..

أخيرًا .. النار قد بلغت الشيء الشبيه بالقلم ..

ما جلوى هذا الشيء ومن جاء به هنا ؟

لا يعرف ..

لكنه سيتبين الأمر حالاً ...

قال ( آينشتاين Einstein ) للطلبة الجالسين حوله ،  
وبلهجته الألمانية الثقيلة :

- « هل أنتم مسرورون من الدراسة هنا في ( برنستون  
Princeton ) ؟ »

كان للطلبة يشعرون بخجل لأن العالم العظيم هو الذي  
يقدم لهم الشئ بنفسه ، لكن البروفيسور ( جون ويلر ) كان  
قد اعتاد هذا على كل حال .. إن تواضع ( آينشتاين ) فائق  
حقاً ، وهو يذكر بتواضع العظماء في كل مكان .. بينما  
التافهون يصعرون خدهم للناس طيلة الوقت ..

رد الطلبة في خجل :

- « نعم .. نعم .. »

وجد ( ويلر Wheeler ) صعوبة في الإمساك ببلدح .. إن  
إصبعه المبتورة من جراء تلك الحادث في طفولته تعوقه عن  
ذلك ، لكن الحادث أورثه شينين : إصبعاً مبتورة وولفاً دائماً  
بالانفجارات .. لقد قار أهباره كم الطاقة المنعرة التي كان إصبع  
الديناميت يحتويها ، والتي أخرجها من عقالها عود كبريت  
واهن .. ولئن كان آخرون يتحولون إلى مدمني حرائق  
أو إرهابيين فإن ( ويلر ) قرر أن يكون عالماً في الطبيعة ...

لقد ظلت القوة الرهيبة للمهية للطبيعة تهزه من الأصاى ،  
وقد شاهد ( ويلر ) ذات مرة صورة لتفجير هيدروجينى فى  
المحيط الهادى لزال جزيرة من على الخارطة ، فحسب قوة  
الانفجار .. وأثر ذهوله أنها لاتساوى إلا واحدًا على الألف  
من قوة الإعصار ..

قال ( أينشتاين ) للطلبة وهو يجلس فى كرسيه الأثير  
الذى يعزف الكمان عليه ، عندما يكون وحده :

- « يمكنكم أن تكونوا فى أى وقت .. أعرف أن نظريتى  
عن ميكانيكا الكم Quantum mechanics عسيرة الفهم ..  
لكننا نستطيع معًا أن نزيل علامات الاستفهام .. »

سأله ( ويلر ) :

- « أصعب جزء فى نظريتك هو الخاص بفرضية أن النجوم  
لتى يتجاوز حجمها حدًا معينًا تنهار .. تخيل هذا مستحيل .. »

قال للعالم الكبير باسمًا :

- « يمكن البرهنة على هذا بالمعادلات ، لكن لا تتوقع  
منى أن أحتفظ بنجم منهار فى غرفة نومى .. »

وضحك وضحك الجميع ..

وما لم يعرفه أحد أن هذه الجلسات خلقت عددًا لا بأس به من علماء الطبيعة .. وقد اعترف عدد منهم بذلك ، وهم يتسلمون جائزة ( نوبل ) أمام ملك السويد ...

أما ( ويلر ) فقد غرست في أفكاره بذرة ، ظل يتعهدا بالسقيا عشرات الأعوام ..

\*\*\*

قال ( ويلر ) لطلبتّه بعد هذا اليوم بأعوام طويلة :

- « إن نظرياتي تبلورت في مبدأ ( الانهيار الانجذابي Gravitational Collapse ) .. لا مفر للنجوم من أن تنقلص بفعل ضغطها الذاتي الجبار ، وتنتهي إلى شيء جديد غير مألوف .. شيء صغير كثيف جدًا غير منظور .. يمتص كل شيء حتى الضوء ذاته .. »

كان قد شاخ وصارت عيناه رماديتين كنيبتين بلون الغيوم في يوم مطير ، لكنه ظل يحتفظ بقامته الفارعة العلاقة المتينة ، وصوته الخفيض الذي يرهقك في سماعه .. وكان يفخر بأنه بسيط جدًا ، وأنه لو سمع محاضراته طفل في العاشرة لفهم أكثرها .. واليوم كان يشرح لتلاميذه مفهومًا صعبًا ...



بدا على تلاميذه الإرهاق الذى يبدو على وجوهنا كلما  
سمعنا لفظة ( أبدية ) ، وتبادلوا النظرات ..

سأله أحدهم وهو يتلع ريقه :

- « هل تعنى أن هذا النجم غير مرئى ؟ »

- « نعم .. إنه ثقب .. ثقب أسود Dark hole .. »

ثم راح يرسم على لوح الكتابة صورة تخيلية لهذا الثقب  
الأسود .. وقال :

- « تخيل رائد فضاء يقترب بمركبته من هذا النجم الذى  
هو أكبر عشر مرات من الشمس .. سيجد أن سفينته  
تتجه بقوة غير مسبوقه إلى هذا الثقب .. ربما رأى شيئاً  
كهذا .. »

ورسم نجماً مجاوراً يخرج منه شيء كالقطيرة لينصب  
فى الثقب الأسود ..

- « هذا الثقب يتلع للنجوم المجاورة .. يتلع كل شيء ..  
لما حزام النور هذا .. »

ورسم نطاقاً ضوئياً حول الثقب الأسود ، وأردف :

« ... فندعوه ( لقي الحدثان ) .. أي مراقب خرج هذه المنطقة لا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً مما يدور في النقب الأسود .. لكن لقد اقرب الرائد كثيراً .. صحيح أنه على بعد خمسة آلاف كيلومتر ، لكن - بلغة الكون - معنى هذا أنه ملاصق للنقب الأسود .. إنه ينحرف إليه .. والآن تعمل نقب في سفينة أخرى ومراقب المشهد .. »

ورسم سفينة فضاء صغيرة على بعد من النقب ، وقال :

« هذه السفينة تلتنا .. ماذا نرى ؟ نرى أن حركة الرائد للبأس الذي يتلعه النقب قد صارت بطيئة جداً .. السبب هو أن الزمن نفسه يتباطأ قرب الثقوب السوداء .. والآن اجتاز الرائد لقي الحدثان .. أخ ! لقد غلب عن حيويتنا للأبد .. »

شهق بعض الطلاب وقد تخيلوا أنفسهم في هذا الموقف ، والبعض شهق لأن تخيل هذا عسير ..

قال ( ويلز ) وهو يمصح لوح الكتابة :

« الحقيقة أن هناك مدة سوداء غير مرئية تربط أجزاء الكون ببعضها .. سرعة دوران المجرات توحى بهذا .. هي لا تدور كلجسم حرة منفصلة ولكن تشعرك بأن هناك ملاطاً لا تراه عيوننا

بين أجزائها .. ملاحظاً لآثاره عويّتها .. ثم هناك نظرية لتمدد الانفجارى *Inflationary big bang* .. النظرية تقول إن الكون يتمدد بطريقة توحي بأن كتلته تفوق ما نراه مائة مرة .. معنى هذا أننا لا نرى 99% من مادة الكون .. مم ستكون تلك المادة ؟ هل من الثقوب السوداء أم من الأكرزام البنية *Brown dwarfs* التى هى نجوم أضعف من شمسنا ؟ لا أحد يعرف .. «

قال أحد الطلبة الأنكياء :

« لكن كيف نتحقق من هذا كله ؟ لاشيء يبدو غير الثقوب الأسود .. »

حقاً كانت هذه هى المشكلة بالنسبة لـ (ويلر) ..

وسط كل هذه المعادلات الفيزيائية يتعذر إيجاد دليل ملموس منظور ..

لكنه سيبين الأمر حالاً ..

## الدائرة الثانية

### ثقب في الفضاء

#### 1

كنت منهمكاً مع د. ( شنج - هار - شيتج ) الكورى إياه ،  
جلسين فى غرفة المراقبة التى تشغل جهاز الأشعة المقطعية ،  
وهى - كما تعرفون - من أسوأ لحظات حياتى ، لكن تعلم  
هذا الشيء لا غنى له لمن يرغب فى أن يكون جراحاً ..

كان هو منهمكاً فى تعليمى متحدثاً كالعادة عن ( أشجار  
السرو التى لا تنمو إلا ... ) ، حين سمعت صوت مكبر  
الصوت ينادينى ...

كان المكبر يحاول جاهداً أن ينطق اسمى الذى صدمت  
مقاطعه من فرط عدم الاستعمال ، وشعرت للحظة بغرابة  
الاسم وهو يتكرر عدة مرات بالطريقة إياها :

- « دكتور آلا أهدل آزيم .. دكتور آلا أهدل آزيم .. »

وتذكرت طريقة النداء عندنا فى المصالح الحكومية التى  
تستعمل مكبر الصوت : المعاون ( بيومى ) التواجد فى



مكتب المدير للأهمية . لسبب ما يصير هؤلاء على حنف حرف  
الجر ( على ) قبل الاسم حتى تغدو العبارة غير مفهومة ،  
وهذا يكسبها الطابع الحكومي الروتيني المطلوب ..

— « يجب أن أذهب يا سيدى .. »

— « بالتأكيد .. »

قالها بطريقة الآسيوية المهندبة المفرطة فى الضحك  
فنهضت .. قلبى يخفق توتراً .. ربما ساجد حقاً ما يشغلنى  
فى الأيام القادمة .. بعض المسحوق يزيل الصدا عن وجه  
الحياة ..

هكذا توجهت إلى مكتبه متظاهراً بالوقار ، لكنى كنت  
أركض من فرط الطرب ..

وداح عطفى يزين لى ما ساجده فى مكتبه .. مجموعة من  
السحرة يطالبون برأسه .. مريض بوباء جديد يتلوى على  
الأرض وينزف .. ضبع يتحرش به وهو متكور فوق المكتب  
يصرخ .. مجموعة من الإرهابيين يطالبون بعدة مليارات  
من الدولارات .. أو .. ربما ما هو أخطر .. ربما هو ...

— « د. ( عبد العظيم ) .. كتم لك د. ( جبرار لومبان ) ! »

كان (لومبان) هذا هو أغرب كائن يمكن تخيله .. ليس من ناحية الإثارة ولا للطرافة ، بل لأنه - فعلاً - أعجب كائن في العالم . كان قصير القامة بشكل خير عادي إلى حد أن قميه لا تلمس الأرض حيث جلس .. وكانت رأسه عملاقة لا أعرف كيف يستطيع حملها .. هناك نوعان من قصيري القامة إلى هذا الحد : القزم والقمي .. القزم متناسق الملامح يتمشى رأسه مع جسده ، وهو بهذا لا يبدو قصيراً بل يبدو (بعيداً) لو كنت تفهم ما أعنيه .. أما القمي - وهي ليست سبة - فـرأسه ناضجة كبيرة الحجم بينما جسمه صغير .. لم يكن (لومبان) هذا ينتمي إلى أي نوع من النوعين ، وهنا يكمن سر غرابته ..

فيما عدا هذا كان متأنقاً أكثر من اللازم ، وله صوت جهور رنان يبدو أنه اعتاد به تحاشي زملائه الذين قد يسخرون منه ..

كنت خواطرى وجلست وحاولت ألا أنظر له أكثر من اللازم .. فقط غمغمت في سرى : الحمد لله الذى عافانا .. ثم جلست أصفى فى أدب ..

قال لى (بارتلييه) وهو يعرف بالتأكيد ما يدور فى ذهنى :

- « د. (لومبان) زميل عزيز .. ويهمنى أمره بالتأكيد ..  
إن مهمته محددة تمامًا هي أن يعرف عدد حالات بعض  
الأمراض الجلدية المعينة في وحدتنا خلال فترة زمنية  
معينة .. هل بوسعك أن تساعد في هذا ؟ »

أمراض جلدية ؟ هذه هي المهمة المثيرة التي كنت أتطلع  
إليها ؟

قلت في خيبة أمل :

- « لكنني لست بخير من يفيد في هذه النقطة يا سيدى »  
بدا عليه الغيظ ، فهو يكره إطالة الجدل أمام الغرباء ..  
قال لى :

- « الأمر لا يحتاج إلى عبقري في الأمراض الجلدية مثل  
( هبرا Hepra ) .. كل ما هنالك أنك ستترافقه أثناء بحثه في  
قاعدة البيانات عننا .. إنه يبحث عن ؟ »

ونظر لزميله على طريقة ( قلت - لى - ماذا ؟ ) ، فقال  
(لومبان) :

- « السرطان الأسود Melanoma .. سرطان الخلايا  
القاعدية .. حالات إعتام عدسة العين غير المفهومة .. »

قلت باسمًا :

- « أما هذه الأخيرة فلا تمت للأمراض الجلدية بصفة ،  
لكنى معجب بتفرع دائرة اهتماماتك .. »

ومن جديد قلت للمدير :

- « هناك من هو أفضل منى فى هذا الصدد .. »

نظر لى من جديد .. كنت أفهم ما يريد قوله .. هو يرغب  
فى الخلاص من الرجل بارغام واحد آخر على العمل معه .  
ومن يصلح لهذه المهمة سوى العبد لله ؟ كما قلت أنا  
مسمار يسدون به أى موضع فارغ فى الآلة ..

كل هذا واضح ولا مجال للتراجع .. وإلا هو العقاب  
المعروف ..

قلت ولما أنهض :

- « حسن ياسيدى .. هذا سهل .. متى أبدأ ؟ »

- « اليوم لو أمكن .. إن د . ( لومبان ) باق معنا لمدة  
أسبوع لا أكثر .. بعدها يتجه إلى ( ناميبيا ) .. »

قال ( لومبان ) مفسرًا :

- « إن ( الكامبيرون ) نموذج لغرب إفريقيا .. ( ناميبيا )  
نموذج لجنوبها .. »



فهمت .. هذا نوع من المصحح العشوائي يطلقون عليه  
( العينة العشوائية ) .. لكن من الصعب أن أتصور أن هذا  
للرجل يصل وحده .. هذه مهمة تقوم بها منظمة كمنظمة  
الصحة العالمية ، أو فريق معقد من الرجال والأجهزة ..

قال ( بارتلييه ) وقد خمن ما أريد السؤال عنه :

- « لا أحد يريد لتعلمون مع د. ( لومبان ) سوى ( سافارى ) ..  
لهذا يعمل وحده .. »

ضحك الرجل وقال وهو يطوح قدميه فى الهواء :

- « بمعنى آخر أنا أمثل للهيئات مايمثله عبيط القرية ..  
لا أحد يصفى له أو يصدق ما يقول ، لكن وحدة ( سافارى )  
تتمتع بسعة الخيال لحسن الحظ .. »

أكره الحكم على الناس بمظهرهم ، لكن منظره الغريب  
وهو يطوح بقدميه كطفل فى السابعة ، بدا لى أبعد المناظر  
عن الثقة .. وبصراحة لا ألوم من رفض التعاون معه ..

هكذا هزئت رأسى لدعو الدكتور إلى الذهاب معى ، فوثب  
من فوق المقعد .. هنا فقط لمكننى أن أرى قنمته القصيرة ورأسه  
الصالح بوضوح تام .. ولمحت ملامح الخلاص على وجه  
( بارتلييه ) كأنما هو يقول : ( هم واتزاح .. الحمد لله ) ..

خرجنا من المكتب البسيط الخاص بـ (بارتلييه) متجهين  
إلى وحدة الكمبيوتر ..



كنت (جرتروود) للزنجية المرححة جلوسه هناك ولأمامها  
كوب ورقى من القهوة ، وأمامها ورقة فيها شظيرة .. الحق  
يقال إنى لو صرت المدير لمنحت هذه المرأة أعلى رقب  
ممكن .. بشوش وتؤدى عمل عشرة رجال ، وتلعب عدة  
أوراق فى الآن ذاته .. مشرفة على قاعدة البيئات .. مشرفة  
على التقارير الطبية ، وخروج وبخول الحالات .. تعرف مفتوح  
مكتبة الفيديو هنا ، والتي يتم مسح شرائطها غير المهمة كل  
سنة لشهر .. كل هذا وهى لا تكف عن الضحك وإطلاق  
الدعابات ..

هناك فتاتن محليتان تساعدانها فى إدخال البيئات ، لكنهما  
غير موجودتين فى كل وقت ..  
قلت لها وأنا ألتحم المكان :  
- « صباح يا (عسل) .. »

وهى طريقة الكلام المعتادة بيننا كما تعلم .. إننا نتكلم  
بالإنجليزية ، والطريف لنى أستعمل كل قدرتى على الاستهتار ،

والكوب الحروف كأنها قطعة لادن متظاهراً بأننى أمريكى  
محترف .. هذه الطريقة تسليها وتضحكها كثيراً ..

قالت وهى ترشف ما بقى فى الكوب :

- « أخيراً رجل واحد لطيف فى هذا العالم القذر .. لكن  
هل تعرف أمك أنك خرجت يا صغير ؟ »

ثم توقفت لأنها فوجئت باللكتور ( لومبان ) .. لذا أظهرت  
بعض الوقار وأصفت إلى طلبة بطريقة رسمية ..

قلت لها ولما أحاول ألا أتفجر ضحكاً :

- « أريد مصححاً للحالات التى تم تشخيصها كقرحة قارضة  
أو سرطان أسود ، أو عقلة بعصاة العين خلال ثلاثة  
الأعوام الماضية .. »

هنا صاح ( لومبان ) محتجاً ففهمت أنه يتكلم الإنجليزية  
وبلغها :

- « ليس القرحة القارضة .. أريد سرطان الخلايا القاعدية .. »

هنا فهمت أنه ليس طبيباً .. أى طبيب يعرف أنهما نفس  
الشيء تقريباً .. فقط تتكون قرحة فى جسم السرطان وتآكل  
ما تحته ، ولما كانت هذه القرحة تفضل الوجه .. بالذات

ذلك المثلث الذي يتضمن العينين والأنف ، فإن بوسعنا أن نتصور أن المشهد لا يكون جميلاً على الإطلاق .. لكن فلرأ مسعوراً يتسلى بقرض الأنف والعينين .. وهذا هو سر الاسم المخيف ( القرحة للقارضة Rodent ulcer ) ..

على أن هذا السرطان يفضل طبقة الخلايا القاعدية في جلد الوجه ، وهو من أنواع السرطانات ( الموضعية ) للفريدة .. التي لا تنتشر إلا في مكانها ، ما لم تحدث ظروف خاصة جداً ليس هنا مجال ذكرها ..

للخلاصة : ليس ( لومبان ) هذا طبيباً .. ففي أى شيء هو ( دكتور ) ؟

قلت له باسمًا :

- « نحن نناقش الشيء ذاته .. لكن ما مجال الدكتوراه التي حصلت عليها ؟ »

قال في كبرياء :

- « أنا مختص بالطبيعة الجوية .. »

نظرت له في دهشة .. لا اعتقد أنني قبلت مختصين كثيرين في الطبيعة الجوية ، ولم أعرف أنهم يبدون كهذا .. وحتى



لو قابلت أحدهم فمن الغريب أن يكون مهتماً بسرطان الجلد ..  
 لكن القصة غير مترابطة إذن .. ماذا يهمه من هذه الأمور ؟ يبدو  
 أن ( مسافري ) في لفترة الأخيرة تتلقى عينات من البشر عجيبة ..  
 كانت ( جرتروود ) قد طرقت المفاتيح بسرعة بأصابعها  
 السمراء الخبيرة ، والقلم في نفس اليد التي تفرع المفاتيح ،  
 وعلى الشاشة راحت البيانات تتوالى ...

قالت باسمه :

« هناك الكثير فعلاً من البيانات يا ( غالى ) .. لو كنت  
 تعتقد أنك ستحصل على كل شيء الآن فأنت قد اخترت  
 الشخص الخطأ .. »

قلت لها وأنا أقرب أتفى من الشاشة :

« ليكن .. لكنك مستنكرين طلبى .. هه ؟ »

« يمكنك أن تعتمد على ( جرتروود ) العجوز المنحطة .. »

و غادرت المكان مع ( لومبان ) ..

بدلاً من أن أمشي معه في الوحدة ، ولكل ينظر لنا متسئلاً  
 عن كنه هذا الشخص الغريب ، وعن سر اصطحابي له ، قررت  
 أن الوقت قد حان كي أدعوه إلى الكافيتيريا حيث نشرب شايًا ،  
 وأنهم منه المزيد ...

قلت له ولنا اتخذ مقعدى :

- « مازلت لا أفهم علاقة هذه الأمور بمجال تخصصك .. »

ابتسم ونظر للقاعة حولنا بعينين زالقتين ، وقال :

- « نعم .. هذا صحيح .. خمن .. »

شعرت بغىظ يتصاعد إلى رأسى بما .. لو كان هذا للرجل يعطلى كى يلعب الفوازير ، فلنا كفىل بأن اللعب به هو نفسه .. قلت له بفتور :

- « خمنت وفشلت .. والآن أرجو أن توجز .. »

قال وهو يتناول علية العصير التى أحضرتها له :

- « طبعا نحن نتكلم عن ثقب الأوزون هنا .. خبرر

بالطبيعة الجوية ومطران جلد .. الأمر سهل .. »

قلت له فى غمظ :

- « لحظة من فضلك .. معلومتى - وأرجو أن تصح لى -

هى أن ثقب الأوزون موجود فوق القطبين ، ولا يخل له

بنا .. كلتك اخترت ( الأسكا ) لصيد الخرتيت ، أو اخترت

خط الاستواء للبحث عن طائر البطريق .. »

قال من جديد بصوته الجهورى الغليظ :

- « هذه هى النقطة التى تروق لى فى بلد مثل (الكامبيرون) .. »

كان غامضاً فى هذه النقطة ، ولم ارد أن ارضيه بمزيد من الأسئلة .. لهذا سألته عن شىء آخر :

- « هل تحاول إجراء عملية مسح ؟ هذا مستحيل بالنسبة لشخص واحد ، ومع كل الأعداد للهائلة التى يجب أن تفحصها .. معلوماتى الإحصائية هى أن هذه طريقة فاشلة للحصول على نتائج ، ولو أردت رأى يمكنك الاستعانة بنظام Cochrane الكمبيوترى .. يمكنك الحصول على نتائج واسعة وأنت جالس فى مكتبك .. »

قال باسمًا :

- « لا أحد يريد التعاون معى .. ألم أقل لك إننى عبيط القرية ؟ »

كنت أقول له إننى موافق على هذا ثم فضلت أن أخرس .. إن حاجتى الماسة للمشاكل هذه الأيام قد تجلب لى الويل .. على الصوم لنا أعرف ما سيقول بعد أيام من البحث المدق :

« ثقب الأوزون يتآكل يا شباب .. هذه هي الكارثة التي  
 حلت بـالتواتر البيئي لكوكبنا .. سرطان الجلد يتزايد .. حرارة  
 الكوكب ترتفع .. اقبلوا شيئاً أربها الأوغاد ! »

ثم يحمل أوراقه لينصرف وينام سعيداً ، متظاهراً بأنه  
 لا يعرف أن منات العلماء قالوها من قبل ...

أن يقرر إسمان (عادة اكتشف (البنسلين) بعد كل هذه  
 الأعوام .. هذا شأنه .. لكن أن يكون مسئولاً عن مساعدته  
 فهذا ما لا يطاق ..

تري كم سأتحمل من وقت قبل أن أهشم أنفه وأطرد من  
 الوحدة ؟

# الدائرة الثالثة

## ثقب في قلب

### 1

في الصباح لم أجد جوربا نظيفا .. تجاهلت هذا وبدأت ارتداء ثيابي فلاحظت أن القميص ينقص زرا ..

كنت (برنادت) تقف أمام المرأة تمشط شعرها ، توطنه لأن تخرج معي إلى الوحدة .. كنا الآن نعيش في تلك (الفيلة) الصغيرة التي تبعد خطوات عن وحدة (سافاري) ، لكن سيارة الوحدة كانت تمر بنا في هذا الوقت بالضبط لننقلنا هناك ، مع د. (سيمون مولنيسار) جارتنا .. هل تذكر قصة الطبيبة التي اعتقلت أن زوجها مصاب بالإيدز فاتضح أنها من نقلته له ؟ حسن .. كنت هي جارتنا ، وكنا نعيش معها حياة طبيعية لأن الإيدز - كما قلت لك - لا ينتقل بسهولة .. فقط كنا ندعو الله ألا تتدهور قريبا .. فقد كانت امرأة ممتازة ..

قلت في ضيق لـ (برنادت) ، وقد تذكرت ما يقوله الرجال في مواقف مماثلة :

- « (برنادت) .. هذا القميص .. الزر ليس ... »

نظرت إلى ما تكلم عنه .. ثم طلبت منى أن أخلعه لتثبت هذا الزر .. فقلت في عصبية :

« لا وقت لهذا .. لكن كان من واجبك أن تثبتى الزر .. »

قالت وهي تواصل تمشيط شعرها ، وتضع المعطف على كتفها :

« لم أعرف هذا .. كنت بنفسك لاحظته الآن للمرة الأولى .. ثم كنت كنت عذبا وتعرف كيف تثبت زرا .. »

وضعت رأسي جوار رأسها في المرأة ، وقمت بتهذيب لحييتي بالمشط ، وقلت :

« حينما يتزوج لرجل فبقه يعهد بهذه الأمور لزوجته .. لا أستطيع أن أتذكر عدد جواربي أو عدد أزرار قميصي .. ظننت أن هناك عقلا أكثر دقة وترتيباً يتابع هذه التفاصيل »

« جميل .. لكذلك تعرف أنني أعود إلى البيت بعدك وأغادره معك .. ثم إن الحمل ... »

في الحقيقة لم أعرف موضع الخلاف .. فعلا ما كان بوسعها أن تعرف .. لو طلبت منها ولم تفعل فلربما كان من حقى أن أحتج ، أما الأمر كذا فلنا شعر بأننى أتحرش بها ..

وهذا جزء من بحثى للدعوب عن مشاجرة هذه الأيام .. لذا  
قلت لها ولما ارتدى المعطف الأبيض على خلفية من صوت  
هدير محرك السيارة بالخارج :

« هيا بنا .. لقد وصلت السيارة .. »

★ ★ ★

كنت متجهاً إلى قسم الجراحة .. ثم يظهر (لومبان) بعد  
وأحسبه من الذين لا يصحون قبل العاشرة ؛ لذا قررت أن  
أبدأ يومى .. هو يعرف أين يجدنى لأنى أخبرته أمس ..

دخلت وسط زحام الأطباء المنهمكين فى ارتداء ثياب  
الجراحة .. البعض يقف أمام المرأة بحكم تثبيت القناع ،  
والبعض بدأ خطوات التعقيم ..

استطعت بطبيب تخدير فرنسى لا أنكر اسمه ؛ لهذا كلما  
قابلته استعصت ضمير المخاطبة فقط .. هذا يشبه ما أفعله  
فى مصر عندما أستعمل (بيه) و (باشا) مع كل من  
أعرفه جيداً لكنى لا أنكر من هو حقاً .. واضح أن هذا  
الطبيب الفرنسى صديق حميم لى و (بسام) ، لكنى فى كل  
مرة أخجل من سؤاله عن اسمه أو أسمى ذلك ..

عرفت شخصاً كهذا فى مصر ، وكنت أتعشى أية  
مواقف محرجة بأن أبدأ بالهجوم :

- « لقد نصبت ما طلبته منك ! ليكن ! هذا ما توقعته ! »

فارتبك ويروح يحاول تذكر ما هذا الذي طلبته .. عندها  
لتركه وقد رسمت على وجهي ابتسامة تجمع بين اللوم  
وخيبة الأمل والتهذيب .. هكذا لا يجد أبدا فرصة لتطويل  
الحوار ! ليذكر أنني لا أعرف اسمه !

قال لي الفرنسي الذي لا أنكر اسمه :

- « هل رأيت ( بسم ) اليوم ؟ »

كانت هذه اللهجة تثير غلي .. معنى هذا أن ...

قلت في توتر :

- « ماذا ؟ مشكلة جديدة ؟ »

هز رأسه موافقا :

- « تفاقمتم تلك الضربات الزائدة صباح اليوم .. وقد

قرر أن يذهب إلى قسم القلب .. »

الآن فقط عرفت أن الأمر خطير .. ( بسم ) صديقي الفرنسي

طبيب لكنه لا يطبق الأطباء ، ويؤمن أنهم يتربصون به ،

وهو شعور طفولي طبيعي يشعر به كل منا حين يتفكر طبيب

الأسنان في فمه صائحا بالتصاير : آه آه آه !



لهذا لم يستشر ( بسلام ) أحداً بصدد توبعات الضربات الزلدة التى تلاحقه منذ أسبوعين . أعرف أن هذه الضربات على الأرجح ناجمة عن توتره أو إفراطه فى شرب القهوة ، لكن ما دام قد طلب رأى الطب فالأمر جد خطير ..

هكذا شقت طريقى فى الزحام ، حتى وجدت للجراح الذى سأقوم بمساعدته اليوم ، وطلبت منه أن يعطينى بعض الوقت .. كان منهمكاً ، فهز رأسه أن نعم وهو يواصل شرح تقنية الجراحة للقائمة لطبيبين آخرين ..

خرجت من القسم ، واتجهت إلى قسم القلب ..

لم يطل بحثى ، فقد كان رافداً على سرير الفحص ، وقد وقف جواره طبيبان وممرضة فلبينية .. واستطعت أن أدرك أن صدره عار وقد ثبتت عليه تلك الأقطاب المخيلة ..

وعلى شاشة المرقاب ( مونيتر ) رأيت تلك الموجات المميزة لسريان الكهرباء فى جدار قلبه ..

حقاً هناك ضربات زلدة عديدة .. لكن - على قدر علمى - لا يوجد شيء آخر غير عداى ..

قل مختص القلب ، وهو طبيب ألماني يدعى ( شميت ) ..  
لو شينا على هذا القرار :

- « ضربات زائدة أذينية .. إن يختلف تخطيط قلبك هن  
هذا لو شربت قهوتين من القهوة .. »

كان الأمر واضحاً فلم أر ما يدعو للقلق ..

قلت لـ ( بسام ) وأنا لربت على ساعده البارده كالمنج :  
« لا تقلق .. إن الأورط لا ينالون الموت بهذه السهولة .. »

لكنه كان متعكر المزاج وفي حالة لا تسمح بالمزاح ..  
قال في عصبية :

- « هذه هي لقوة الخمسة هذا الأسبوع .. هناك كثرة ما .. »

قلت باسمًا :

- « لا بد أنك تذكرت ( حبيبة ) .. »

لم يعلق .. وهذا أشعرنى بأننى مسخيف ..

هناك قصة شهيرة عن ( ابن سينا ) حين استدعوه لعيادة  
شاب يعاني الضربات القزادة .. رأى القنطلسى البارح حالة  
الشاب .. فطلب من يتلو على الشاب أسماء قبائل العرب  
كلها .. راحوا يتلون بينما ( ابن سينا ) يضع لجامه على  
النبض .. تسارعت ضربات القلب عند اسم قبيلة معينة ..

الآن طلب الطبيب أن تتلى أسماء كل فتيات هذه القبيلة على الشلب ، ووضع يده على قلبه .. تسارعت ضربات القلب عند اسم فتاة معينة .. هنا أعلن ( ابن سينا ) أن الفتى عاشق ، ودواءه الوحيد أن يتزوج هذه الفتاة .. وقد كان ..

( حبيبة ) هي خطيبة ( بسام ) التي تنتظره في الوطن ..  
ذكروني فيما بعد أن أعرف لماذا تسمى كل فتاة تونسية على وزن ( فعيلة ) .. لكن الوقت غير مناسب الآن ..

كم حكي لي عن يوم ارتدى العباءة التونسية الأنيقة وذهب لبيتها ليقول لأبيها العبارة التقليدية هناك : جيتك خاطب راضب في بنت الحسب والنسب ..

فقط ليقول أبوها في وقار : كي نكتب ..

أي أنه موافق .. والحقيقة أن الفتى كان يحبها فعلاً ..

سألت للطبيب الألماني وقد عدت لاستعمال الفرنسية :

- « هل يتعاطى خطراً منظمًا للضربات ؟ »

هز رأسه أن لا داعي لهذا ، وأضاف :

- « اعتقد أن الامتناع عن القهوة والتبغ سيحسن الوضع ..

لا بأس بمهدئ خفيف .. أما ما لا لفهمه فعلاً فهو أن هناك ارتفاعاً في درجة حرارته .. »

كان (بسام) قد بدأ يدخن منذ فترة ، وهذا على سبيل عقاب الذات .. كلما انتقد الوطن أكثر كلما قرر أن يعاقب نفسه .. أنا لم أر (تونس) لكن قياساً على شوقه المحموم لها ، فلا بد أنها جنة الله في أرضه ..

لكن حرارته مرتفعة برغم برودة أطرافه ؟ هذا جزء لا لفهمه .. إن الزكام يحدث أحياناً .. ملت وسألته :

« هل تشكو من أية أعراض أخرى ؟ هل كنت سليماً في الفترة السابقة ؟ »  
تذكر قليلاً ، ثم قال :

« خلعت ضرساً منذ فترة .. هل هذا كاف ؟ »

طبعاً غير كاف .. خلع للضروس لا يسبب اختلال الضربات وارتفاع الحرارة بأثر متأخر ..

ظل (بسام) راغداً يلهث وينظر للمرقاب .. وقدرت أنه يريد أن يمرض .. يتمنى أن يمرض قليلاً .. هذه حاجة إنسانية طبيعية نشعر بها من وقت لآخر .. إما لكسر روتين الحياة ، وإما لننال بعض الاهتمام .. أهم شيء في هذا الاحتياج أننا نفضل أن يتم بلا أطباء ..

احترمت هذه الرغبة وجلست معه بعض الوقت ، حتى  
قرر أن ينهض ..

كنت أمشى بجواره متجهين إلى مسكن الأطباء ، حيث  
سمح له أن يستريح بقية اليوم ، عندما رأيت د. ( باركر )  
البريطانى نائب المدير قائماً .. ( باركر ) الذى إن لم يكن  
يتسلى بشئ للقطط فى قرن بيته ؛ لكان فهمى للبشر  
خاطناً ..

قلت لنفسى : يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم .. كنت أريد  
مشجرة ، وها هى ذى قد جاءت تتبختر .. متلقة تضع يديها  
فى جيب المعطف ، وتتكلم إنجليزية راقية .. لقد أريد هذا الرجل  
ما سيحدث ، وعلى الباغى تدور الدوائر . فى دور السينما التى  
كنت أدخلها فى ( شبرا ) ، كان ( بروس لى ) يصرخ دائماً فى  
منتصف كل فيلم قتلاً : لقد أريدتم القتال فلنا له .. ثم يطير فى  
الهواء ليحطم عدة جماجم ويفتح عدة بطون .. فهلل له فى  
الصلاة .. لانفس ألقا كنا - باعتبارنا نمونجاً للطبقة الوسطى -  
أغنى من أن ندخل ( لترسو ) ولقر من أن ندخل ( البكون ) ..

على عكس ما توقعت ، قال ( باركر ) وهو يرمى ( بسمام )  
باهتمام :

- « أرجو أن يكون صديقنا العربى بخير .. »

قلت بسملاجة وأنا أفتح باب غرفة الفتى :

- « سيعيش .. »

وسألت ( بسام ) وأنا أزيح له ملاءة الفراش جثيًا :

- « هل تريدني معك ؟ »

نظر في توتر إلى ( باركر ) الواقف كغراب البين على الباب ، وقال :

- « لا .. شكرًا .. اذهب لتري ما يريد .. »

قلها كله يقول : أهد هذا للشيطان عني ، فهو يزيد حالتي سوءًا ...

لكن ليس قبل أن أنزع عنه المعطف والحذاء .. ما المشكلة في أن أنزع حذاءه ؟ إنه أخى .. وأنا مستعد للفعل أى شيء ما دمت لست مجبرًا عليه ..

هكذا أغلقت الباب وعبت لـ ( باركر ) متوقعًا كارثة ..

قال لى وهو يمسك بذراعى ، فى إيماءة لم أعتدها قط .. حتى شعرت بأن لفتى تلف على معصمى :

- « إن ذلك الدكتور الفرنسى يبحث عنك .. لتكلم عن ( لومبان ) .. »

- « سألته إليه .. »

استوقفني متمهلاً وقال :

- « مارأيك فيه ؟ شخص غريب الأطوار .. أليس كذلك ؟ »

هزئت رأسي بما معناه ( نعم ) أو ( بلى ) .. لا يمكنك  
استخلاص شيء .. مع ( باركر ) أنت تتعامل كما يتعامل  
المجرم مع ضابط المباحث .. لا تعطه إجابات يستصلها  
ضدك فيما بعد ..

لرف وهو يجرنى معه جرأ :

- « إن الرجل العجوز لا يتصرف بحكمة .. إنه طيب القلب ،  
ولا يرفض طلباً لأحد .. لهذا ينبغي على المرء أن يكون هفراً ..  
أنت تفهم ما أريد قوله .. أكثر مشاكل هذه الوحدة تقع على  
عاتقى فى النهاية .. هذا هو الوضع الكليب لـ ( الأخ الأكبر )  
الذى يرى ويعرف كل شيء .. قد يفتنه البعض لكنهم  
لا يتصورون كم هو ضرورى .. والآن لما لرى أن ذلك العجوز  
يجازف باسم الصداقة .. إنه يسمح لهذا الفرنسي المجهول  
بأن يأتي هنا .. يجمع بيانات .. يتغلغل فى كل شيء .. ثم  
يصدر نتائج تحمل اسمنا .. أنا أمقت هذا .. »

قلت له وأنا لا أفهم كل هذه المقدمات :

- « لم لا تمنع التعاون معه رسميًا ؟ »

- « إن أصطدم بالمدير بهذا الشكل .. لنقى لنى على عقليتك  
المتفهمة لهذه الأمور .. وما أطلبه ليس عسيرًا .. أريد تقريرًا  
كاملًا عن المعلومات التى جمعها هذا الرجل ، وماذا يستخلص  
منها .. أريد معرفة أين يذهب وماذا يفعل .. سيكون هذا  
سهلاً عليك لأنك مكلف رسميًا بأن تكون ظله .. »

توقفت وألصقت ظهري بالجدار وقلت :

- « سيدى .. هل نقى الإنجليزية قد ترهلت ، أم لنقى  
أفهم أنك تطالبنى بالتجسس على الرجل ؟ »

قال فى عصبية :

- « لا تخلط الأوراق .. إن لغتك الإنجليزية بالسوء الذى  
تعتقده فعلاً .. ما أطلبه ليس تجسسًا .. يجب على القياسيين  
أن يكونوا على علم بما يدور تحت أنوفهم .. »

كنت أعرف أن هذا يتم من دون علم (بارتلييه) ، لهذا  
قررت أن ألعب اللعبة ببراعة .. قلت :

- « ليكن .. سأقدم تقريرًا للبروفيسور (بارتلييه) .. »



قال فى غيظ :

- « إني أنت لم تلهي كل ما قلته لك .. لتتقارير مستقيم  
لى أنا .. هل هذا صعب ؟ »

- « لا أستطيع يا سيدى .. تعلملى مع جهة واحدة هى  
البروفيسور ( بارتلييه ) .. »

أخذ نفساً عميقاً .. بالطبع كان يريد تحطيم وجهى ، لكنه  
لا يستطيع ذلك الآن .. قال فى صبر :

- « إن قبورك سينعكس على وضعك هنا .. وأنا أعرف  
ما أقول .. أحب أن ألقى فيمن يصل معى ، وأنت تعرف أن أداك  
ملىء بالأخطاء التى يمكن أن أكتشفها .. فكر فى هذا .. »

طبعاً كان محقاً .. لو أراد أن يتحرش بى - وهو قادر  
على ذلك - لوجد ملايين الفرص .. بدءاً بأضرار المعطف  
غير المزرة جيداً وانتهاءً بتأخير ثلاث دقائق عن موعد  
نوبتية ما .. ولن يستطيع ( بارتلييه ) حملتى ..

قلت له لانهى الموقف :

- « سأفكر فى هذا يا سيدى .. »

وابتعدت قبل أن يرد ...

ما معنى هذا ؟ هل هو مجرد تدخل فيما لا يعنيه أم أن الأمر مهم بحق ؟

ماذا يعنيه من هذا الرجل البائس الذي يعتبر نفسه (عبيط القرية) ؟

على كل حال لم ألق (أوميلان) ثقية لأنني تشقت ببعض الأعمال .. كانوا يحتاجون إلى من يساعد في عيادة الأمراض العصبية ، فطلبوني .. وهكذا ذهبت هناك .. وقضيت عدة ساعات تعبئة ..

قرب العصر قابلت طبيباً آخر قال لي بتلك اللهجة التي نكل على كلثة :

- « صديقك التونسي .. (بسام) .. لقد عاد إلى الضلّة للمركزة .. »

- « متى وكيف ؟ »

- « للتوبات عادته .. منذ ساعة تقريباً .. كان يقف هنا ثم تحسس صدره وسقط على الأرض ، فحملناه حملاً إلى هناك .. لا أعرف ما يحدث لكنهم قلقون .. »

ماذا ؟ هذا كثير ! مرتان في يوم واحد !

توجهت إلى هناك فلم أجده .. كانوا قد نقلوه إلى الغرفة  
الاجتنبية التي يجرون فيها فحص الموجات فوق الصوتية  
Echocardiography .. طبعا عندما يتكرر الأمر يقدو من  
الواجب إجراء المزيد من الفحوصات ..

بالفعل دخلت الغرفة الضيقة فوجدت علامات الوجوم  
على الوجوه .. وعلى الشاشة تلك الخطوط التي لن أفهمها  
ولو بعد مليون سنة ، لكن تعبيرات وجوههم تقول إن الأمر  
جد خطير ...

كان ( بسام ) على فراش الفحص ، والطبيب الألماني إياه  
يمر مسير الجهاز المغموس بالجل Gel على صدره ..  
لم ينتظر ( بسام ) حتى أعرف ما هنالك .. بما صاح في  
رعب :

- « ( علاء ) .. ثمة ثقب بين البطينين ! كنت أتوقع كارثة ،  
وقد وجدتتها ! »

# الدائرة الرابعة

## ثقب في جيب

### 1

عدت إلى مسكننا .. تلك الفيلا الصغيرة التي صارت بيتنا .. لا أعرف إلى متى ..

لقد جعلناها رحبة جميلة .. الأزهار في كل مكان .. الباب مطلي بطلاء هو خليط من البنفسجي والأرجواني .. يبدو أن له اسمًا نسائيًا من تلك الأسماء التي لا تتذكرها أبدًا .. (سيمون) ؟ لا .. ستذكره حالاً ..

الأثاث في الداخل مريح .. ليس فخراً لكنه مريح ، مع مسحة تذكرك بغرف الأطفال .. إن (برنات) تجيد هذه الأمور ، ولو أعطيتها خرقة قماش وصرصوراً ميتاً وعلبة ورنيش لحذية ، لصنعت لك مكتبة جدارية تبهر لها أنفاسك ..

المهم أنني دخلت ولم تكن (برنات) قد عادت بعد .. إن عملها لن ينتهي قبل الخامسة مساء ..

في المطبخ كان الغشاء معداً .. مكرونة في مصفاتها ،

وصلصة فى إقاء جاهز للتسخين .. هناك قطع من الدجاج  
المخلى تنتظر فى طبق ملىء بالبقسماط .. كل ما على هو  
تسخين الصلصة وسكبها على المكرونة ، ثم إلقاء قطع  
الدجاج فى الزيت .. هذا لو كنت جالساً جداً لا أطيق  
انتظارها .. جالساً جداً أو قاسماً لا يبالى بشيء .. هذا اتفاق  
ضمنى بيننا ..

لكنى بالفعل كنت غير قادر على الانتظار .. كان توترى  
بسبب ( بسام ) قد أورشى تقلصاً فى فم المعدة أقرب إلى  
الجوع ، وفدرت أن الأكل سيريدنى .. ( بسام ) الآن نائم  
بفعل حقنة مهدئة وقد انتظمت ضربات قلبه ، فلن أفيد  
بشيء لو مت من التعب جواره ..

هنا سمعت صوت شيء يتخرج على الأرض ..

كانت مجموعة من الصلات المعدنية قد سقطت من  
الجيب ، وتخرج بعضها أرضاً بينما فضل بعضها أن يستقر  
ما بين الحذاء والجورب ..

مسحت يدى الملوثة بالصلصة فى منشفة الوجه ، ثم مسحتها  
فى جيبى .. لأشعر بجانب من أخذى تحت أصابعى مباشرة  
لا تفصلنى عنه بطانة الجيب .. هذا جيب ممزق مهترئ ..

ليكن .. خلعت البنطال وارتكيت بنطال منامتى ، ثم رحت  
لواصل إعداد وجبتى ، وجلست على المنضدة الصغيرة فى  
المطبخ لآتهم بسرعة وبلا تأذ ..

سمعت للباب يفتح ، ثم ظهرت ( برنات ) .. كانت  
مرهقة شاحبة ومن الواضح أن يومها لم يكن أفضل يوم ..

هزرت رأسى لحييها .. ثم واصلت الأكل .. اعتقد لئنى  
بعد هذا سأكتب خطاباً لوالدتين ، ثم أخفو بعض الوقت ..  
فى المساء أذهب لأطمئن على ( بسام ) وليذهب الفرنسى  
( لومبان ) إلى الجحيم .. إنه يعرف مكان قسم الحاسب  
الآلى .. فليذهب هناك وحده فهو لم يعد طفلاً ..

تأخرت ( برنات ) فى الحمام قليلاً ، ثم سمعت صوت  
الصنبور ..

قلت والصوت يقول إنها تغسل وجهها :

« قد كان يوماً عسيراً .. لنا ميتة من الـ .. »

ثم توقفت .. بعد دقيقة عادت لى ملوحة بمنشفة الوجه ،  
وقالت :

« لماذا مسحت فيها الصلصة ؟ »

قلت وأنا أغرم الشوكة فى المكرونة :

- « لم أجد شيئاً آخر لأصبح يدي فيه .. لم تحدث كارثة ..  
هاتى منشفة أخرى .. »

مطت شفيتها السفلى فى ضيق ، وقالت :

- « منشفة أخرى .. هذا سهل بالنسبة لك .. إن هذا  
البيت يحتاج إلى ألف منشفة يومياً .. »

ثم كومت المنشفة وألقتها فى الركن ، حيث تنتقل إلى  
سلة الغسيل ..

قلت لها وأنا لوصل الأكل :

- « ثمة ثقب فى جيب بنطالى .. أرجو أن ترتقيه لى .. »

هزت رأسها أن نعم ، ثم بدأت تعد لنفسها بعض الطعام ..

جلست أمامى على المائدة ، ثم رفعت قطعة من الدجاج  
بالشوكة وقالت باسمه :

- « ( علام ) أيتها العزيز .. نحن نستعمل مقلاة لا محرفة  
جئت .. ما فعلته أنت هو أن حولتها إلى قطعة لحم .. »

هنا فاض بى .. لأحب نعمة لتعرض هذه .. قلت فى ضيق :

- « هل يوجد شيء واحد فعلته اليوم لا يندرج تحت  
خاتمة الخطأ الشنيع ؟ »

هنا استبد بها الغضب بدورها ، فقلت :

« لسبب بسيط .. هو أن ما تفعله كله يندرج تحت هذه الخلة .. »

« ليكن أيتها العزيزة .. ليكن واضحاً أن يومى كان سيئاً .. ( بسلم ) مريض وتشاجرت مع ( باركر ) وادى طن من الأعمال المعقدة ، فلو أضفنا إلى هذا عدة ساعات فى عيادة الأمراض العصبية ، لوجدت أنى لمت مؤهلاً للعب دور ( جيمس بوند ) الذى لا يخطئ ولا يتعب ، أو العشق الأبدى الذى يلقى بمعطفه فى الوحل على تمشى فوقه لميرة لحلامه ، فلا تتسخ قماماها لمقستان .. »

« لم أطلب معطف فى الوحل لأن خصيلها سيكون مسئوليتى فى النهاية .. ولكن هل تعتقد أن يومى كان نزهة ؟ »

« نحن متعادلان ، لكنى لا ألقى الوقت فى انتقاد تصرفاتك .. »

هكذا تصاعد الإيقاع للغضب .. كلمة بكلمة ، حتى بدا لى أننا نتصلى جبلاً يحاول كل منا أن يبلغ قمته قبل الآخر .. تصاعد هارمونى على طريقة الكريشندو Crescendo للموسيقية الشهيرة حتى نصل درجة الصراخ ...

لو أن الموسيقىار ( سليم سحاب ) سمع هذا الأداء المعجز لضمنا فى حماس إلى فريق الكورال الخاص به .. ونهضت .. لم أعد أريد أن أوصل الطعام ..



لا أعرف .. ثمة حاجز ينشأ بيننا من حين لآخر ، ويجعل من الصعب أن أريها ما أحمله لها بالفعل .. أحبها وأشفق عليها مما هي فيه من ( وهن على وهن ) .. لكن تصاعد الأحداث يجعل أى اعتراف من هذا النوع مهيئاً ..

بعد قليل دخلت للفراش وحاولت أن أنام ..

يبدو أن لغة الزواج أبدية ، كلما ظن عشقان أنهما تكى أو الفصل حقاً من الآخرين اتضح أنهما أحلمان .. لا بد من خلاف فى رأى يتصاعد إلى شجار .. لا بد من أن تخرج المضغوط اليومية بخارها حين تنفرد برقيق حياتك .. فقط لتكتشف فى أسى أنه لن يقبل منك ما لم يقبله الآخرون ...

وهنا ينشأ ثقب فى العلاقة .. يتسع ...

حقاً إن الإنسان مسكين .. تتشاجر مع رئيسك فى العمل فتفصل .. تتشاجر مع مار فى الشارع فيحطم لك .. تتشاجر مع هيئة حكومية فتسجن .. عندها تشعر بحاجة إلى أن تخرج بعض عصبيتك فى دارك بعيداً عن العيون ، لكنك تصطدم بشريك حياة غير مستعد لسماع شيء .. عرفت صديقاً لى كان يلوذ بسيارته بأقصى سرعة لها فى طريق مهجور ، ويخرج رأسه من النافذة ويصرخ ويصيح بأعلى صوته .. كان هذا يريحه ، وأظننى أفهمه ..

- « لا شيء مثل (الروك أند رول) ليسد ذلك الثقب في روحك ! » .. أغنية قديمة لفرقة (أبا Abba) السويدية .. تذكرتها فابتسمت .. لو كانت الحياة بهذه السهولة لكننا سعداء الحظ فعلاً ..

- « لا شيء مثل (الروك أند رول) ليسد ذلك الثقب في روحك ! » .. يكفي أن أبتاع شريطاً راقصاً للإيقاع (روك أند رول) لتنتهي مشاكلي !

\*\*\*

نمت ساعتين وصحوت متعباً ..

كنت (برنات) جالسة أمام التلفزيون لآتراء .. عينان زائفتان تشاهدان التلفزيون الداخلي في أعماقها .. جالسة وقائماها على مسند أمامها بحيث صارت كلتا ناقة في فراشها .. وهو وضع لم يبد لي مريحاً على الإطلاق ..

بدأت ارتداء ثيابي من جديد .. هنا تنبهت إلى بضعة أشياء ..

لا جوارب كالعادة .. الزر الناقص لم يعد لمكانه ..

كنت لها وأنا أشرب جرعة من الماء :

- « (برنات) .. طلبت منك أشياء تعتبر تافهة .. لكنها جميعاً لم تتفد .. »

قلت وهى تواصل النظر فى الشاشة :

— « لاحظ أننى وصلت منذ ساعتين ونصف .. لادى  
قميصان لخرى وجورب لابس به .. اترك لى كل شيء  
واسوف أعنى به .. »

هنا تذكرت شيئاً آخر :

— « الثقب فى جيب البنطال .. كنت أتوى للخروج به ..  
هل أصلحته ؟؟ »

ابتسمت ونظرت لى طويلاً ، وقالت :

— « نفس الإجابة .. »

هنا انفجر غيظى ..

الآن بدأت أتكلم وانتم تعرفوننى حين أقرر أن أتكلم ..

حدثتها عن استهتار المرأة الغربية ، وعدم شعورها  
بقيم البيت .. أمى كانت مستتحر فوراً لو ظل زر قميص أبى  
ناقصاً لفترة تتجاوز الساعة .. بل ربما انتحرت لو أن أبى  
طلب للشيء قبل أن تلاحظه هى .. أبى لم يكن يعرف عدد  
جواربه لو شكلها ، لكن أمى كانت تعرف تاريخ كل جورب ..  
من أين اشتريناه ومتى رفقته ومتى غسلته .. أمى لم تكن طيبة

ولم تكن تتحدث اللاتينية والفرنسية ، لكنها عرفت كيف  
تصنع أسرة سعيدة متماسكة .. أبى لم يكن طاغية لكنه لم  
يطلب قط ذات للطلب مرتين .. قلت لها إن الرجل يعيش من  
أجل عمله ، بينما المرأة تعيش من أجل بيتها ، ولية محاولة  
لتبديل الأوضاع كقيلة بخراب ( ملطمة ) ..

قلت لها كلاما كثيرا ، وكنت ساهتم رأسها لو بدأت  
تصطنع بالشرقي المتخلف أو تتهمنى بالمسوجنية Misogyny  
أو معاداة المرأة .. والتهمة الأخيرة صارت مثل معاداة  
السامية تلاحقني حيثما ذهبت ..

لكنني أشهد لها أنها ظلت صامدة تصني ولا تتكلم .. فقط تنظر  
إلى شاشة التلفزيون .. هذا امتص غضبي إلى حد ما ..

لكنني قبل أن أنصرف قلت لها :

- « لو لم أجد ثقب الجيب وقد تم رتقه لدى عودتي ،  
لنصوب استنتاج أن هذا سلوك متعمد .. »

وكنت أعرف أنني ضغطت الزر السحري للتحدي لديها ..

لن ترتق الثقب .. هذا يقين لدى ..

كنت أريد مشاجرة ويبدو أنني سافكر بها لخيرا .. كم أن  
هذا جميل ..

سوف يتصاعد صراخی إلى حد أنه سيزعج (بارتلیہ)  
 فی مکتبہ ، واصوف یأتی اطباء (سفاری) کی پھلوا من  
 روعی ..

کم أن هذا رافع .. وکم أنا فی حاجة إليه !

★ ★ ★

## الدائرة الرابعة

### ثقب في جيب

2

- « لا شيء مثل (الروك أند رول) ليصد تلك الثقب في  
روحك ! »

\*\*\*

الظلام قد حل ولنا أمشي في طريقى إلى وحدة (سافارى)  
التي تلمع أتوارها هناك ...

كنت أتساءل : هل مانحن فيه ونسى ؟ هل سيزول  
مربعا ؟ كم من مشاجرات مرت بنا وذابت بلا أثر .. كانت  
ألمى تقول يوما : حتى الأمعاء تتشاجر في بطنك .. فكيف  
لا يتشاجر زوجان ؟

لكنى كنت فى كل مرة أشعر بضيق شديد ، مع رغبة عارمة  
فى عدم التراجع .. إن للحياة معقدة بما يكفى فلماذا نجعلها  
أعقد ؟ أقول هذا لنفسى قبل أن أقوله لـ (برنات) ...

دخلت وحدة (سافارى) لتبألت تحية هز الرأس مع رجل

الأمن الأفارقة الذين يجوبون المكان .. ثم توجهت إلى  
العناية المركزة .. لوحدة خلية تقريبا الآن فلا تلقى إلا  
تصام الحظ التوبتجيين أو بعض المرضى .. طيفا غرفة  
المدير مضادة كالعادة .. تعوت عيني رؤية الضوء عبر  
الستائر ( الفينيقية ) التي تغطيها ، وصرت أعرف متى  
يكون الرجل في مكتبه بالضبط ..

هل أخبره عن محادثتي مع ( باركر ) ؟

لا أظن .. لم يحدث فيها شيء جدى ، ولا أحسبها  
تستحق وقفة ..

الآن أدخل العناية المركزة فلا أجد ( بسام ) فى فراشه ..  
لست ميالا إلى كونه مات لأن الأمور ليست بهذا السوء ..  
قلت لى المعرضة التى تراجع دقات الدواء إنه شعر  
بتحسن فتصرف ..

أين ذهب الفتى إذن ؟ أعرف أنه يموت قلقلًا .. هو من  
الطراز الذى يموت من خشية المرض قبل أن يقتله ذات  
المرض .. لكن أين ذهب ؟

مشيت فى الطرقات قاصدا مسكن الأطباء مصفيا لصوت  
خطواتى على الأرضية ..

قرعت باب غرفته عدة مرات فلم يكن أحد بالدخل ..  
هكذا ولقت على الباب أحد راسي .. إلى أين أذهب وأين  
يمكن أن أجده ؟

في الحقيقة لست راغباً في البقاء في البيت .. كما أنني  
لست راغباً على الإطلاق في قضاء ليلتي هنا .

لكن الأمر واضح الآن .. لن أجده .. لقد أوضحت ضميري ..  
هكذا رحلت أجوب طرقت ( سافرو ) مضيقاً لكبري من  
الوقت ..

هنا وجدت نفسي ألق أمان ( باركر ) !

★ ★ ★

لو أنني قبلت مذهباً لما بدا لي الأمر منفرأً إلى هذا الحد ..  
كان يرمقني بنظرة نارية ويداه في جيب معطفه ..  
بحثت عن خطأ ما فلم أجده .. لاحظت أنني لست نوبتجياً ..  
قال لي في هدوء :

« هل تريد شيئاً ؟ هل أنت طبيب هنا ؟ »

واضح طبعا أنه يتحرش بي ، فقلت في برود :

« أعتقد هذا .. »



قال بضملاز :

- « أنا لا أرى طبيبا أمامى .. أنت لا ترتدى معطفا .. »

تنكرت هذا الآن فقط .. لكن الإجابة سهلة :

- « ليس لدى عمل حاليا هنا .. »

قال ببرود :

- « إما أن تكون طبيبا فتكون مطالبنا بارتداء المعطف ..  
وإما أن تكون متمملا لا أعرف كيف سمح لك رجال الأمن  
بالدخول .. »

- « ربما مريض كذلك .. »

قال وهو يدون أشياء فى مفكرته التى لا يتركها ، والتى  
تحمل قلماة باللوان الإيذاء التى ينوى أن ينزلها على  
الرهوس غدا :

- « حسن .. اعتقد أنه ستكون لنا كلمتان غدا بهذا الصدد .. »

- « حقا ؟ شكرا يا سيدى .. أشكرك على تفهمك .. »

وتصرف قبل أن يقول كلمة أخرى ، كنت أعرف أنه  
سيبدأ عهدا من الإرهاب .. هذا هو اليوم الأول من عملية  
ملاحقته لى ..

لم يكن أمامي سوى خيار واحد هو أن أتجه إلى مكتب  
(بارتليبه) العزيز ..

- « مساء الخير يا (علاء) .. هل من أمل لهذه الليلة ؟ »

لم يلحظ قط أنني لا أرتدى المعطف الأبيض .. فجلست ، ولحقت  
شبهياً صديقاً وانتظرت حتى تنتهي من الكتابة ورفع لي عيناً  
متسائلة .. قلت :

- « سيدى .. أرغب رسمياً حمايتى من د. (باركر) .. »

نظر لى فى دهشة ، وقال :

- « حمايتك ؟ عم تتكلم بالضبط ؟ »

- « أعتقد أنه يتحرش بى لأننى رفضت طلباً له .. »

وحكى له القصة كاملة ، وهو يسمعها فى غير فهم ..  
تحول إلى دهشة حقيقية .. فى النهاية قال لى :

- « وماذا بهم (باركر) فى أبحاث (لومبان) ؟ »

- « لا أعرف .. أعتقد أنه الأقدر على الرد .. »

فكر قليلاً ثم مد يده إلى الدرج فأخرج قلبين من الشيكولاتة  
وناولنى واحداً ، وقشر الآخر لنفسه ، وقال :

- « إن (لومبان) غريب الأطوار .. ينقب عن أشياء غريبة جداً ، ولو لم يأت بتوصية من الملحق الصحى الفرنسى لما أوليته اهتماماً .. الآن أجد أن (باركر) مهتم بدوره .. »

- « ويحاول أن يغلطها دون علمك »

طبعاً لم أترك فرصة من أجل (بى الإسطين) المرجو بينه وبين (باركر) ، لكنه كان حريصاً على ألا يصطدم بمساعدة الشرس .. فلفظ قال لى وهو يكور ورقة الشيكولاتة :

- « سألهم للتفاصيل .. لكن حتى تلك الحين أرجو ألا ترتكب لخطاء .. هو سيلاحق أخطائك الواضحة حتى لا يمكن تبريرها ، وسوف يضعنى هذا فى موقف حرج .. لن أستطيع حمايتك .. »

كنت أعرف أن هذا سيكون رده ، لكن لابد من عمل هذا ..

وكنت متأكداً من شيء آخر .. هو لن يذكر حرفاً من هذه المحادثة لـ (باركر) .. لكننى على الأكل زرعت فى نفسه شكاً تجاه أى شيء يقوله (باركر) على .. ولو جاءه (باركر) غداً ليقول له إننى أتحرش بالمرضعات أو أختلس حقن المورفين ، فسوف يأخذ الاتهام بشك أكثر ..

هكذا تركته ورحلت أبحث عن مكان آخر لضيق فيه ساعاتى السوداء ..

كنت أعرف أن بعض الأطباء يجتمعون أمام التلفزيون في هذا الوقت ، حين لا يشغلهم شيء .. وهكذا قررت أن أذهب إلى هناك ..

بالفعل كان ثلاثة من أطباء التوليد جالسين هناك يدخلن واحد منهم ، ويتصلن لثان بشرب بعض العصير .. وكان التلفزيون يعرض مسلسلاً عجيباً لا أعرف جنسيته بالضبط ..

جلست معهم ورحت أطلع الشاشة شارد الذهن .. إن التلفزيون مفيد جداً كمنشط للأفكار .. خاصة حين يعرض شيئاً تلفها .. مثله في ذلك مثل النار والبحر .. هذه أشياء خلقت للشرود عبرها لا للنظر فيها ..

هنا مال على أحدهم وهو طبيب أمريكي شاب ، من الطراز النحيل للدمث ذي العوينات إياه ، وقال في تهذيب :

- « أرجو أن تكون فكتورة ( عهد العظيم ) بخير الآن .. »

نظرت له في غباء .. إن الغربيين لا يفهموننا وتعاملاتهم معاً قد يصفها من لا يفهمها بالوقاحة .. ما دخل زوجتي بالأمر ؟ ولماذا يطمئن عليها هي بالذات ؟ من الطبيعي جداً عندهم أن يسأل الرجل صديقه : كيف حال زوجتك ؟ برغم أن هذه عندنا تعتبر نوعاً من الإهانة ..

لهذا قلت له فى برود :

- « بخير .. »

قال فى كياسة :

- « أرجو أن يكون التزلف قد توقف .. »

هنا شعرت بمزيج من الرعب والغباء والغريظ .. رعب لأن هناك نزفاً ، وغباء لأننى لا أعرف شيئاً عن الموضوع ، وغريظ لأننى آخر من يعلم ..

لكنى تماكنت نفسى بسرعة ، وسألته :

- « هى بخير .. فقط لم تحك لى كل التفاصيل .. »

قال بلهجة من يقول شيئاً أعرفه تماماً :

- « لقد جاءت من عبادة الأطفال جرياً لتلخصها

د. (ماى فاى لين) .. تقول د. (ماى) إن هذا إجهاض منذر ..

ما زال حتى الرحم محتفظاً بتماسكه ، لكن من السهل جداً

أن يتحول إلى إجهاض حتمى .. نصحتها بالراحة ، لكن

د. (عبد العظيم) أصرت على مواصلة عملها فى عبادة

الأطفال .. أرجو أن تكون قد نصت بالراحة الآن .. »

ثم حك رأسه وقال :

« الأطباء أسوأ للمرضى طرًا .. يعتقدون أنهم عقودوا معاهدة مع المرض ، ولأنه لن يؤذيهم مثلما يؤذي الآخرين .. لهذا لا ينفنون لوهم التطعيمات الصحية .. »

كنت أفهم هذه النقطة تمامًا .. وقد رأيت أطباء لا يفسلون أيديهم بعد فحص أمراض جلدية شديدة العدوى ، معتكدين أنهم أكبر من هذا .. مثلهم كمثّل عمل صديقة الكهرباء الذين لا يلتزمون بأقل حيطة في تعاملهم مع الأسلاك المكشوفة ، كأنهم يعتبرون التيار الكهربائي صديقًا لن يؤذيهم أبدًا ..

قلت له ، ولما أتاهب للنهوض :

« هل كتبت لها أدوية معينة ؟ أعني هرمونات أو أي شيء من هذا الهراء ؟ »

هز رأسه لن لا .. ورسم على وجهه علامات الاسترخاء وقال :

« فقط راحة .. الكثير من الراحة .. »

هزرت رأسي وغائرت المكان .. أسمع كلمة ( الراحة ) أكثر من اللازم هذه الأيام ..

لما وقد صرت بعيداً عن صيونهم ، غابتني رحت أركض  
كالمخبول خارجاً من الوحدة ..

لماذا لم تقل لي شيئاً تلك الليلة ؟ لماذا تركتني لوحيها  
والومها ولعب نور شرير الصينما ، بينما هي غملا كانت  
مريضة ؟ هذه هي المرة الثالثة التي يتكرر فيها موضوع  
التزف ، وقد بدلت أشعر أن هذا الحمل لن يدوم طويلاً ..

( لهذا تلخرت في الحمام لدى صونتها )

رحت أركض حتى بلغت للفيللا ، ففتحت الباب ودخلت ..

- « ( برنلت ) .. ( برنلت ) ! »

لم يكن هناك رد ، فالتجيت متوجساً إلى غرفة النوم ..

بالفعل كانت هناك وقد نامت على ظهرها ، وهي تنفص  
بإرهاق غير عادي .. ورغم للظلام في الغرفة يمكنني أن  
أرى ذلك للشحوب الذي لم لأحظه من قبل ...

لماذا لم تخبرني ؟ على الأرجح كسي لا تريد من متاعبي  
بعد يوم مرهق ، وهي تعرف أنني أخذ كل شيء على أصصلي ،  
لهم تردد أن تضيف مشكلة جديدة .. لقد حسبت أنها ستظهر  
تلك المحنة على قنبرها كما قهرت المحنة السابقة .. وإرهما

هي طريقة الأثني الخبيثة : إنه يخطئ .. دعيه يخطئ .. دعيه  
يتمادى في الخطأ إلى أقصى حد .. واسوف يندم .. دعيه يندم ..  
دعيه يعرض أنامله ويقرع سنه ...

مددت يدي وتحسست نبضها .. إنه منتظم .. ليس سريعاً  
ولا يثير القلق .. لا أعتقد أن هناك مشكلة حالياً ..

إنها العاشرة مساءً والوقت مازال ممتداً .. سأقضى وقتاً  
لابأس به مع نفسي وحدي .. وهي من الزيارات الثقيلة  
على نفسي اليوم بالذات ..

خرجت إلى قاعة الجلوس الصغيرة حيث كانت تجلس  
حين تركتها ..

جلست أمام التلفزيون الصغير وضغطت على زر التحكم  
عن بعد ، وعلى الشاشة رايت وجوهاً إفريقية تناقش  
مشكلة خطيرة ما ..

هنا حلت منى للتفتة إلى الأريكة المجاورة للجهاز فرايت ..

كان بنطالي هناك وقد طوى في وضع كان كيه قد تم ..  
جواره وجلت بكرة الخيط وقد غرست فيها الإبرة .. كما توقعت  
مددت يدي وتحسست الجيب ثم قلبته للخارج .. لم يعد هناك  
ثقب .. كأنما هو لم يوجد قط ..



« لن ترتق الثقب .. هذا يقين لدى .. »

« لن ترتق الثقب .. هذا يقين لدى .. »

« لن ترتق الثقب .. هذا يقين لدى .. »

وعلى بعد خطوات وجدت مشجبا على مسند المقعد ، وقد  
علق عليه قميص اكتملت ازرارہ ...

لقد فعلتها برغم كل شيء .. تحملت على نفسها  
وفعلتها ..

لكنها نسيت الجوارب ولا ألومها كثيرا ...

« لن ترتق الثقب .. هذا يقين لدى .. »

« لن ترتق الثقب .. هذا يقين لدى .. »

كان هذا أقوى من تحملنى ، وشعرت بأن أحدهم أراح  
القميص عن قفاى ليسكب فيه لترا من الماء المثلج .. هكذا  
هرعت إلى غرفة النوم ، حيث الملاك النائم ما زال نائما ..  
ركعت على ركبتى جوار الفراش ، ورحت أتأمل وجهها ..  
تلك الجزر الغامضة على حافة العالم التى لم يرها أى رحالة  
سواى .. لا بد أن بحارة ( كولومبس ) خافوا أن يصلوا إلى  
هذا الحد وهددوا بالتمرد ، من ثم تراجع الرجل .. لا بد أن

صليبتين من اسطول (ماجلان) غرقنا قبل أن تصلا لهذه  
الجزر .. لا بد أن خرائط الملاحة في القرون المظلمة كانت  
ترسم الشياطين حول هذه المياه ، فترتجف قلوب البحارة  
رحباً .. لكنى تحدثت بحارتي ، وواصلت الإبحار .. فوصلت  
هناك .. والآن أنا جوارها أسألها الصبح ممسماً ..

لثمت بداها الباردة ، وقلت بصوت دعوت الله ألا تسمعه :

« أنا آسف .. لكنى أطلب فرصة واحدة .. فرصة أخيرة  
لي ولصوف أكون ولدًا طيباً .. »

بعد دقائق خرجت إلى الحمام .. وضعت سداً حوض  
الغسيل ، وملأته بالماء ثم أضفت بعض مسحوق الغسيل ..  
جلت بجواربي ووضعتها في الماء بدورها ورحت أقلب حتى  
تكونت رهوة لا بأس بها ..

وهناك - في الليل والسكون - غارقاً في صابون الغسيل  
والبلل ، عرفت أن الثقب الذي ظهر في حياتي لم يختلف ..  
إنه باق .. لكن لا خطر منه .. ولصوف اعتاده سريعاً ..

## الدائرة الثالثة

### ثقب في قلب

2

حين فتحت عينيها في الصباح كنت هناك ..

نظرت في رعب إلى المنبه ، وهبت جالسة ، وقالت :

- « ( علام ) .. موعد العمل .. أين .. »

كنت أنا بكامل ثيابي متأهبا للخروج ، ومضى هذا أثنى  
لصيقها بربع ساعة تقريبا .. وربع ساعة في مواعيد  
الصباح أمر غير قابل للتعويض .. لكني قلت لها بالسمنا :

- « أنت في إجازة اليوم .. لقد عرفت كل شيء ولست سوف  
أبلغهم في الإدارة .. فقط حاولي أن تبقى بلا حراك »

ووضعت أمامها صحيفة الطعام التي أعدتها لها .. إن  
طهوى رديء لكنها لن تلاحظ على كل حال ..

- « هل ستراك الدكتور ( ماي فاي ) مرة أخرى ؟ »

- « طلبت مني أن أستريح يومين أو ثلاثة .. »

تجهت للباب ، وتركتها جالسة في الفراش تفرس الشوكة في  
بعض قطع البيض .. وقلت لها بلهجة ذات معنى :

- « شكراً على القميص والجيب .. أنت ملاك يا عزيزتى  
بينما كنت أنا الشيطان ذاته »

ابتلعت ما في الشوكة ، وقلت :

- « أسفة لأن قواى تخلت عني فلم أستطع غسل الجوارب .. »

- « فعلت هذا أمس .. كما غسلت بعض قطع ثيابك .. »  
- وابتسمت وأرلفت - « أعنى لى زيتها قذرة . لكن الأعمال  
بالنيات .. »

ابتسمت وابتسمت .. وشعرت أن هذه السحابة تهبط ...

\*\*\*

- « لاشيء مثل ( الروك أند رول ) ليسد لك الثقب في  
روحك ! »

\*\*\*

عرجت على وحدة الحاسب الآلى أولاً ..

رائتى ( جرترود ) التى كانت منهمكة فى تناول إخطارها  
الذى تأتى به من مسكنها .. فصاحت فى رعب :

- « أنت ! لم تترك حجراً لم نقلبه بحثاً عنك أمس .. »

- « بحثوا عنى يا صغيرة ؟ »

- « لكنى لم أسلمك لهم .. تعلمت سياطهم وتعذيبهم وصعدت .. تذكر هذا .. فى المرة القادمة حين تبغى الخلاص من مخبول ما ، فلا تأت به إلى دارى . »

وشرحت لى فى حماس كيف أن ( لومبان ) جاءها عشر مرات أمس ، وفى كل مرة يسأل عنى .. إلا أنه حصل على القائمة التى أراها ، وهى قائمة طويلة فعلاً كما قالت ( جرتود ) ..

- « الرجل متلف فعلاً .. كأنه موشك على تغيير تاريخ الطب .. لكنى أراهن على أنه إحصائى بارع .. »  
- « بالتأكيد .. »

- « ( بلكر ) أيضاً سأل عنك كثيراً .. ماذا فعلت بالضبط ؟ »  
- « لا أفكر .. »

مدت يدها وتولتلى نسخة من التقرير الذى طبعته على ورق الحاسب الآلى المنقّب .. نظرت له فوجدت أنه يتضمن عشر صفحات بها جدول طويل مقسم إلى خانات .. الخانة الأولى تحمل اسم المريض .. ثم يأتى رقمه وتاريخ دخوله وخروجه .. والطبيب المعالج والتشخيص النهائى ...

قلت لها شاكراً :

« لا أحرف كيف أشكرك ، لكنى لم أطلب .. »

قالت وهي ترشف جرعة من القهوة :

« اعتقد لك تمت أن تكون آخر من يطم يا ( عسل ) ..

كيف حال الزوجة ؟ »

هزئت رأسى .. طبعاً لن أحكى عن الإجهاض المنفر لهذه

الثرثرة ..

هكذا خرجت بقيمتى التى حرصت على أن أفسها فى جيبى ..

لو قابلت ( باركر ) الآن لصلرت لديه أسئلة محرجة .. ويسهل

على أى طفل أن يخبرنى بأن هذا ليس من حقى ..

★ ★ ★

« هل رأيت ( بسم ) ؟ »

« لا .. »

« هل رأى أحدكم الطبيب التونسى للشباب ؟ »

« لا .. »

« هل رأيتم ( بسم ) ؟ »

« لا .. »

هكذا فشلت كل محاولاتي للعثور عليه .. لا يوجد نيل هنا لأصنعه قد رمى بنفسه فيه .. فأين ذهب ؟

هكذا قررت أن أتوجه إلى غرفته في مسكن الأطباء .. قرعت الباب عدة مرات ، وفي النهاية سمعت صوته الواهن يقول :  
- « ادخل .. »

فتحت الباب في توجس لأجد راقداً في الفراش بمنامته ، وهو يمسك بصورة في يده .. وقد نكرنى بمشهد الموت في الأقلام العربية .. طبعاً هذه الصورة هي صورة ( حبيبة ) .. لا أحتاج إلى أن ألقبها ..

قلت له ، وأنا أجلس على حافة الفراش :

- « لم تذهب للعمل بعد ؟ »

قال في شرود :

- « وما نفع ذلك ؟ أنا إنسان منته .. »

كنت أجن من القنوط .. فعلاً الأطباء هم أسوأ المرضى طراً ، لذا سألته السؤال المنطقي :

- « هل فحصك أحد من قبل في وطنك ؟ »

- « نعم .. كثيراً .. »

- « ولم يقل أحد إن بقلبك ثقباً ؟ »

- « لا بد أنهم غافلون . »

- « بل لأن الثقب صغير جداً ويصعب اكتشافه بالسمع ..  
هذا ثقب لن يؤثر على حياتك أبداً .. لقد ولدت به وعشت  
كل هذه السنين فلن يختلف الأمر .. »

وتحسست جبينه .. فعلاً هو محموم .. أعتقد هذا ..

قلت له وأنا لمساعد على النهوض :

- « أنت تفضل البقاء هنا لكتابة مذكرة للوداع ..  
(وداعاً أيها العالم القاسي فلما سأتركك اليوم) .. هذا يروق  
لك .. لكنني أضحك بأن تجد سبباً لقوى .. لا أحد يموت بثقب  
صغير في قلبه .. »

قل في إتهاك :

- « لكن الأمور ستسوء من الآن فصاعداً .. هناك أمراض  
كثيرة تلصق عن نفسها في من متكلمة .. إن فكرة وجود  
ثقب في قلبى لا تفرقنى .. صلي من شبه المستحيل أن أمارس  
حياة طبيعية ، ولهذا أكره أن يلصقنى أى طبيب .. سوف  
يخبرنى بخل كنت سعيداً من دون معرفته .. »



قلت ولما أساعده على ارتداء ثيابه ، فقد كان مرتخيًا تملأ كانه دمىة ( ماريونيت Marionette ) قطعت خيوطها :

- « ستهب إلى قسم القلب ، وهناك أتوقع أن يجيب الأمتى عن أسئلتك .. »

★ ★ ★

قال د. ( شميت ) وهو يدس يديه في جيبى معطفه :

- « صديقك لا يصدق شيئاً .. اعتقد انه يريد أن يمرض .. »

كنت أنا نفسى أرغب فى قول الشيء ذاته ، لكنى لم أفقه .. على حين استطرد الطبيب الأمتى :

- « هناك ثقب .. عيب ولد به ، وهذه القصة تتكرر كثيراً جداً .. كل وظائف قلبه ممتازة ولا يوجد تضخم لى أية غرفة .. لقد عاش كل هذه الأعوام بهذا الثقب ، وأتوقع أنه سيمكمل خمسين عاماً آخر به .. لو كنت الأمور أسوأ لتصحته بإجراء جراحة لإصلاح الثقب .. »

ثم نظر إلى ( بسام ) بحزم وقال :

- « اذهب وعش حياتك .. أما إن شئت أن تموت هنا فهذا شأنك .. »

لكن الأمر بالنسبة لى ظل محفوظاً بعلامات استفهام ، لذا  
سألته :

- « وهل اختلال الضربات ناجم عن هذا الثقب ؟ »

- « بالطبع لا .. لقد تزامن العرضان .. فقط جعلنا اختلال  
الضربات نجرى فحصاً بالأشعة فوق الصوتية .. »

- « وهذا الارتفاع فى درجة الحرارة ؟ »

قال وهو يخرج السماعة من جيبه ، ليفحص مريضاً آخر :

- « هذه الأشياء تحدث .. أقترح أن تسأل أحد مختصى  
طب المناطق الحارة .. هناك مليون سبب لارتفاع الحرارة ،  
لكن لا تبحث عن الإجابة هنا .. »

فكرت فى ( آرثر شلبى ) كثيراً .. هذا الأحمق كان ليفقد  
مفيداً الآن لكنك لا تلقاه أبداً حين تحتاج إليه .. لهذا لا مفر  
من أن أعتمد على نفسى لأمنى لم أجرب أى طبيب آخر فى  
ذلك القسم ..

هكذا أخذت ( بسام ) إلى المختبر ، وعملت على أن أخذ  
له صورة دم .. مع بعض اختبارات ضرورية .. وجاءت  
النتيجة بعد ساعة تقريباً تقول إن كل شيء على ما يرام ..

قلت له وأنا لودعه على باب غرفته :

- « أنت زججت بنفسك فى تلك الدائرة الممرغة الشيطانية ..  
أخاف أن يكون قلبى مريضاً .. من ثم تتسارع ضربات القلب  
وتضطرب .. من ثم يتضاعف خوفك .. إلخ .. كف عن هذا  
وتصرف ببعض العقلانية .. »

واقصرفت لأواصل عملى .. لابد أولاً من أن أتأكد من  
أنهم يعون إن ( برنات ) متفنية لسبب مرضى ...

وايتنى ما فعلت !

- « إن ( برنات ) إن تستطيع أن ... »

- « إذن تعال أنت ! ستحل محلها !! »

ثم :

- « واء واء واء واء واء واء !! »

لم يجدوا خيراً منى كى يسدوا به تلك الثغرة فى عبادة  
الأطفال ! ولو قرع الباب متسول لأدخلوه بالقوة وأرضعوه  
على أن يتولى شأن العبادة .. ولنا لا أطبق جحيمين : عبادة  
الأطفال وقسم التوئيد .. يبدو أن السبب هو وجود الأطفال  
والصراخ فى الحالتين ..

إن طب الأطفال معجزة صغيرة ، خاصة مع مريض لا ينطق ولا يشرح لك شيئاً ، ولا يكف عن العويل بحيث لا تسمع شيئاً على صدره على الإطلاق .. تقول النكتة القديمة السخيفة إن طبيب الأطفال يصير طبيباً باطنياً حين يكبر .. الحقيقة أن طب الأطفال أكثر تعقيداً وصعوبة من الطب الباطني ، لو هذا هو رأي الخالص ..

دعك من الحماس غير المسبوق للأمهات الكاميرونيات الواقفات بانتظار دورهن ، ودعك من كل الفضلات البشرية والمخاط و .. و .. الخلاصة إنني تعنيت لو اخترت شخصاً آخر ليبلغهم بتغيب ( برنات ) ..

ظلت أعمل هناك حتى الثالثة بعد الظهر ، وصارت يدي تكتب العلاج وحدها .. وأتني تسمع الصراخ وحدها .. بينما كنت أنا في عالم آخر كئيب ... أما معطفي فلم يعد له لون من كل ما تصاقل عليه ..

كان آخر الأطفال يعانى حمى روماتزمية أتلفت صمامه الميترالي ، وكانت تنبعث من قلبه أصوات مختلطة تذكرك بـ ( ظلمة الري ) في الحقل ..

قست حرارته فوجدت أنه محموم ...

رحت أصغى لقلبه ، وفي هذه اللحظة توهجت فكرة في ذهني ...

القاعدة القديمة .. كل حمى في مريض بروماتزم القلب قد تكون التهاباً نشطاً بالقلب أو ...  
رباه !

\*\*\*

من جديد كرر د. ( شميت ) فحص قلب ( بسام ) بالموجات فوق الصوتية ، وكرر ما قاله :

- « سلبى .. لا يوجد شيء سوى هذا الثقب .. »

قلت له بالحاح :

- « هل هذا كاف لاستبعاد تشخيصي ؟ »

هز رأسه مفكراً ، وقال :

- « لا .. أحياناً نجعل المريض يبتلع منظاراً فيه مسبر Probe .. هذا يزيد من دقة التشخيص كثيراً .. لكن حتى هذه التقنية تفشل أحياناً »

ثم أضاف وهو يتأمل ( بسام ) :

« لكن الاحتمال وارد طبيعياً ويجب ألا نجازف .. سنقوم  
بأخذ عذرة دم منه ، ثم نقوم بإعطائه مزيجاً من  
( البنسلين ) و ( الجنتاميسين ) .. »

وأصدر تعليماته إلى الممرضة ، كي تسحب عينة من دم  
( بسام ) ...

كلفت وثقاً من أن قصتي أقرب إلى الصواب .. لو كان  
( علي ) هنا لأبدى إعجابه بعقريتي .. وأدهشني أن هذه  
الفكرة فالت الطبيب الألماني الأريب .. لكن جميعاً معرض  
للسهو وحتى ( هومير ) يحن رأسه ..

لقد خلع ( بسام ) طرساً منذ فترة ، وفي وقت لم يكن  
أحد يعرف فيه أنه مصاب بثقب بين البطينين .. يعتبر هذا  
عملاً خطراً لأنه يسهل دخول البكتريا إلى دمه لتثبت على  
صمام تالف أو عيب خلقي معين .. من الواجب أن يتلقى  
أولاً جرعات وقائية من المضادات الحيوية قبل وبعد عملية  
خلع الطرس ..

هل حدث هذا من قبل في حياته ؟ جازز الآن هذا ليس  
أول طرس طبيعياً ، لكن الإصابة بالمرض تعتمد على مقدار  
ما يدخل دمه من بكتريا على كل حال .. ربما نجا بشكل ما  
في المرات السابقة ...

تزرع للبكتريا نفسها على الصمام للتلصص ، وتحصى نفسها بطرق لا مجال لذكرها هنا ، ثم تتفتت منها قطع صغيرة تجوب الجسم .. إلى المخ .. إلى الكليتين .. إلى الجلد .. في كل صوب .. وهذا هو المرض المخيف الذى نعرفه باسم ( التهاب الشغاف المعدى Infectiv endocarditis ) .. والشغاف هو الغشاء الرقيق المبطن للقلب من الداخل .. هذه اللفظة الرقيقة التى استهلكها الشعراء ، قد تتحول إلى كابوس ..

لقد أعلن الثقب عن نفسه لدى ( بسم ) .. وهذا الإعلان تزامن مع إصابته للمرة الأولى فى حياته بالتهاب الشغاف .. هذا يفسر ارتفاع حرارته الطفيف ، وقد يفسر اضطرابات ضربات .. لم يجد للفحص بالموجات فوق الصوتية شيئا لكن هذا يحدث كثيرا ..

وراقبت فى قلب الإبرة وهى تنغمس فى عروق ( بسم ) لتفرغ خليط ( البنسلين ) و ( الجنتاميسين ) ..

لن نعرف الحقيقة قبل أن تظهر نتيجة مزرعة الدم .. وقتها أعرف هل أنا مجرد أحصى آخر ، أم أننى بالفعل أنقذت حياته بهذا الإلهام ..

كلما سمع الطبيب الألمانى أفكارى قال :

- « من الأفضل أن تكون مخطئاً من أن تكون متأخراً ..  
 إن سياستك حكيمة ، ولن يخسر هذا الشاب شيئاً لو اتضح  
 أنك بالغت في الحذر .. أما لو اتضح أنك محق فإن حياته  
 مهددة .. إن التهاب الشغاف يقتل .. »

ونظرت له (بسلام) وابتسمت له ، فابتسم لي بدوره ابتسامة  
 لم تخف قلقه البالغ على نفسه ..

وبالعربية قال لي :

- « شكراً يا لخي .. »





# الدائرة الثانية

## ثقب في الفضاء

2

- « لا شيء مثل ( الروك أند رول ) ليسد ذلك الثقب في  
روحك ! »

★ ★ ★

بدأ ( بسام ) يتقبل الحقيقة نوعاً ..

إنه طفل .. كلنا أطفال في الواقع .. لا نقبل أن نكتشف  
خللاً في أعضائنا ، وكأنها حق مكتسب لنا .. واعتقد أن  
موضوع هذا الثقب سينغص حياته لفترة لا بأس بها إلى أن  
يعتاده .. حين يدرك أنه لا يؤذيه ، وإن مشكلته الوحيدة هي  
حاجته إخبار طبيب الأسنان والجراح بمرضه قبل أية  
جراحة ، ليتلقى جرعة وقائية من المضادات الحيوية ..

لكنه - فيما بعد - سيكتب القصة لـ ( حبيبة ) ، وسوف  
يصف لها عذابه وآلامه وربما سجل لها أغنية ( كنت أتمنى  
يطول العمر ) بصوته .. عندها سيعرف أن ثقب القلب هو  
أروع ما حدث له في حياته ..

إنه سوف ....

- « أين أنت ؟ »

كذا صاح الفرنسي (لومبان) بصوته الجهوري ، إذ قلبتى  
فى الردهة ، وقد أربضى هذا الصباح لأن الكثيرين نظروا لى  
فى الفضول ..

قلت مرتبكاً :

- « ظروف معقدة تنهال على رأسى .. زوجتى فى مشكلة  
تتعلق بالحمل .. صديقى مريض .. وقد سألت عنك اليوم  
فلم أجده .. »

قال وهو يمسك بمعصمى ويقتلبنى خلفه :

- « ليكن .. حسبت للحظة أنك تلاشت من الخارطة ..  
هل رأيت نتائجى ؟ »

- « فى الواقع ... »

كان يقتلبنى إلى الحجرة التى أعدها له المدير فى  
(سفالرى) ، ولعلت لأرى مشهداً يذكرك بإدارة الإحصاء فى  
أكاديمية البحث العلمى ، لو كنت عندهم إدارة بهذا الاسم ..  
حسب ألى مفتوح .. جداول .. عشرات الأوراق المطبوعة ..  
مراجع .. للخلاصة أن هذا الرجل لم يضيع وقته ..

قلت له :

- « أرى أنك لست بحاجة إلى على الإطلاق .. »

قال وهو يتخذ مقعداً :

- « بالعكس .. قد ألحد من ناصح بمدى لى بعض قرأى

الصيد الأمين .. »

ثم ضغط على بعض الأزرار فظهر على الشاشة جدول شديد التعقيد .. كنت أمقت الجداول بطبعى وأقفز عليها بمعنى كلما قبلتقى فى كتاب ما ، وأتمنى أن أقول لصاحب الجدول ما معناه ( هات من الآخر ) .. ما خلاصة هذه الأرقام المعقدة التى أراها أمامى ؟

- « ما خلاصة هذه الأرقام المعقدة التى أراها أمامى ؟ »

قال فى فى ثقة مضحكة نوعاً :

- « هذه هى النتائج فى كل وحدة طبية إقليمية أجريت فيها دراسة .. نسبة سرطان الجلد الأسود ، وسرطان الخلايا القاعدية ، وعمامة عدسة العين .. ثابتة لا تتغير وهى قريبة جداً من المعدل العالمى .. »

- « وهل هذا مهم ؟ »

- « نعم .. المفروض أن ثقب الأوزون لا يؤثر في الأفرقة ..  
هل تعرف السبب ؟ »

- « طبعا بسبب جلداهم الأسود الذى يلعب دور المظلة  
الشمسية .. »

قال فى لهجة منتصرة :

- « ولأن سمك الأوزون على ما يرام فوق إفريقيا .. هذا  
هو الرأى المعتاد الذى يقال للطلبة »

ثم ضاقت عيناه وأردف :

- « نسبة سرطان الجلد فى هذا البلد عالية نوعا أو  
عادية تماما .. ألا ترى أن هذا مهم ؟ »

\*\*\*

قالت (برنات) :

- « اعتقد لنى لتحسن .. لا أعرف حقًا لكن لا يوجد مزيد  
من النرف .. »

كانت قد أمضت اليوم على ظهرها .. وهو تعذيب نازى  
لا يمكن وصفه .. لكنى على كل حال حملت للتلفزيون الصغير  
الذى نملكه ، ووضعت فى غرفة النوم على منضدة صغيرة ..  
هكذا صار يوسعها أن تتابع البرامج السخيفة وجهاز التحكم  
عن بعد فى يدها ..

كنت في هذه الأيام قد بدأت ألعب دور الزوج المثالي ..  
 طهوت لها وجبة غير دسمة لكنها مغذية ، وجلست جوارها  
 ورحت أتناولها للطعام في رفق ، فلم ينقصنا إلا كاميرا فيديو  
 وبعض المدعوين ، ليتحول الأمر إلى حفل زفاف آخر ..

قالت ضاحكة وهي تجلف شفيتها بالمنشفة :

- « لو كنت تعتبر أنني يجب حشوه بالطعام فأنت  
 مخطئ .. »

- « من حسن حظك أن أمي ليست هنا .. فهي تؤمن بأن  
 للمرض بشتى أنواعه سببين : الجوع والبرد .. وتحت  
 هذين المسميين تلخص علم (مسببات المرض) كله ، بدءاً  
 بسرطان الثدي و انتهاء بالجذام .. »

ضحكت في إرهابي ثم سألتني :

- « هل ستذهب للوحدة الآن ؟ »

- « هذا الأحقر (لومبان) يريد أن أمر عليه الليلة بالذات ..  
 ثمة شيء يريد إثباته بعنف .. »

- « هل لديك فكرة عنه ؟ »

- « لا أعرف .. إن شيئاً هلامياً غامضاً يدور في أعماق

عقله .. لا أعرف ما هو حقاً .. والكارثة ألا يعرف هو الآخر .. ثمة فكرة تنقر البيضة محلولة الخروج ، وهو قد كونها من زمن لكنه لا يفصح عنها بوضوح ..

ونظرت إلى ساعتى مطمئناً أن على الانصراف الآن ..

- « هل تريدان شيئاً ؟ »

- « أريد أن تظل في هذه الحالة الوقتية .. »

- « إنها ( المسحابة تسعة ) كما يقول الأمريكيون .. لن

نظل هكذا طويلاً .. »

الحقيقة لى لا اعتقد أنها ستصب ( علاء ) الجديد لو بقي كذلك ..

هناك قصة شهيرة جداً للإيطالى ( لبرتو مورافيا Moravia )

عن رجل تخلت عنه زوجته وهو لا يعرف السبب .. يتسائل :

لقد كنت أنظف الشقة يومياً .. لتأكد من وضع الأزهار في

المزهريّة .. لا أترك التبغ في مطفاة .. لم أطلب منها شيئاً

لو ألومها على شيء .. فيقول له معارفه في كل مرة : لا تنقش

عن الحقيقة أكثر من اللازم . والحقيقة هي أنها تركته لهذه

الأسباب بالذات ؛ لأنه عمل رخصو مطبخ لدرجة تثير الغيرة ...

القليل جداً من سوء الطبع قد يكون مفيداً ، ويلعب دور

ملح الطعام الذى لا نستغنى عنه أبداً ..

قرعت الباب عدة مرات فلم يرد أحد ..

هكذا توكلت على الله وأمرت المقبض ، ودخلت في الظلام إلى غرفة (لومبان) .. لا يوجد أحد .. هذا غريب ..

عجأة وقد بدأت عيناى تتلذدان للظلام أرى تلك الجسد المكوم على الأريكة وسط عشرات الأوراق الممزقة والمكرمشة .. ماصاب بدهشة لو أمضيت علما واحدا في حيلتى لم أصطدم فيه بجثة في الظلام ..

كان هذا هو (لومبان) نفسه .. وجريت إلى مفتاح النور وأضاءته ..

كان بثيابه الكاملة ، وكان حيا يذق وإن كان في أسوأ حال ممكن .. لقد تلقى ضربة على جانب رأسه كما هو واضح - لأنه يضع يده على هذا الجزء - وقد شلته جزئيا ، لكنها لم تؤذ به إلى الحد المرجو .. ويبدو أنها حديثة جدا لأنه لم يستعد توازنه بعد ..

أجلسته وبحثت عن شيء أقدمه له ، فوجدت ثلاثية صغيرة بها بعض طب المياه الغازية .. فتحت واحدة ووضعتها في كفه ويبدو أن بروتها جعلته يسترد توازنه بشكل أفضل ...

قلت له أخيراً :

- « من فعل هذا ؟ »

شرب جرعة كبيرة ، وقال عبارات منقطعة لاهثة فهمت منها :

- « لا أعرف .. أحدهم كان فى الغرفة ، ولم أتبه لهذا إلا حين دخلت .. كنت أبحث عن مفتاح النور فى الظلام حين تلقيت ضربة قوية ، ثم فر من اعتدى على .. لم أعرف شيئاً ولم أتبين من هو .. »

حمدت الله على أنه حى .. أولاً لأن حياته أفضل من مماته ، ثانياً لأن الاتهامات كانت ستوجه إلى قبل سوى كما هى للعادة .. من الأحصى الذى كان فى الغرفة فى الظلام بينما الرجل فقد الوعى ؟

- « هل تعرف السبب أو خمنته ؟ »

قال لاهثاً :

- « لا أعرف ... ولا أعتقد أن ما تقوم به بهذه الأهمية .. ولكن ... »

ثم نهض كالمسوع يطوح رأسه الكبير فوق جذعه الدقيق ، فصاحت به :

- « مهلاً ! بهدوء ! »



راح يبحث بين أوراقه كالمهلوف ، وتفحص جهاز الكمبيوتر ..  
ثم قال في رضا :

« لم يسرق شيء .. كل شيء في مكتبه .. اعتقد أنك  
جلت في الوقت المناسب .. »

جلست على الأريكة وأخذت شهيقاً عميقاً وسألته :  
« هل يضايك لو شرحت لي هذا الذي تقوم به ؟ »  
هكذا بدأ يشرح لي للقصة من البداية ...

★ ★ ★

قال ( لومبان ) بعدما استرد قواه كاملة :

« لا أعرف إن كانت عندك فكرة عن الموضوع ، لكني  
سأكون مبسطاً قدر الإمكان .. هل تعرف قصة ثقب الأوزون ؟ »  
قلت له وأنا أعتصر معلومتى العالمة ، فلا تنز منها إلا  
قطرات شحيحة :

« فقط القشرة الخارجية لرجل ليس جاهلاً لكنه غير  
متخصص .. أعرف أن هناك ثقباً وأنه يتسع .. وأنا نحن  
سبب ذلك .. وأن هذا مؤذ .. »

ابتسم في نوع من الإحباط ، كأنه يقول ( لم أتوقع أكثر منك ) ، وقال :

- « أنت تعرف أن الغلاف الجوي لكوكب الأرض يتكون من ثلاث طبقات أساسية هي ( التروبوسفير Troposphere ) هي الملاصقة للأرض و ( الستراتوسفير Stratosphere ) وهي التي تحوى غاز ( الأوزون Ozone ) في جزء منها ، وهذا يسبب ارتفاعاً شديداً في حرارتها . بعد هذا تلي طبقة ( الأيونوسفير Ionosphere ) وهي - كما يوحى اسمها - مليئة بالأيونات التي تعكس موجات الراديو .. خاصة الموجات القصيرة ، لذا يسهل عليك التقاط موجات الراديو القصيرة ليلاً عندما لا يعوق شيء هذه الطبقة عن عملها .. وهي الطبقة التي تسبب ظاهرة الشفق القطبي ( أورورا Aurora ) .. »

- « إن الأوزون غاز سام ويستخدم بكثرة في عمليات التعقيم والتطهير ، وهناك دراسات كثيرة غير مقتنة وغير معترف بها ترمى إلى استعماله في أمراض الكبد وسواها ، وهو يتركز في طبقة ( ستراتوسفير ) كما قلت .. بالذات على ارتفاع 28 إلى 30 كيلومتراً .. وهو يجدد نفسه باستمرار بفعل البرق ، وبفعل الأشعة فوق البنفسجية .. لاحظ ما أقول هنا .. كل الكيميائيين عرفوا أنه لا شيء يخلق ولا يخلق من عدم ، والكون قائم على تجديد موارده .. »

رفعت يدي محتجاً لكنه أشار لى فى ضيق بمعنى أن الإجابة  
قائمة ، وأردف :

- « يمكن اعتبار الأوزون رداءً كونياً يحمينا من الإشعاعات  
الكونية الضارة .. وقد عرف الناس هذه الحقيقة من زمن ..  
إلى أن عرف العلم موضوع ثقب الأوزون .. الكارثة البيئية  
التي صارت على كل لسان .. »

- « نحن الآن فى العام 1957 حيث يتجه البروفيسور البريطانى  
( جو فارمان ) مع بعثة استكشافية إلى القطب الجنوبي ..  
هناك قاموا بقياس مستوى الأوزون فى الجو باستعمال جهاز  
يدعى ( محلل نوبسمون الضوئى Dubson's spectrophotometer ) ..  
ظلت البعثة تتابع مستويات الأوزون شبه الثابتة عدة أعوام ..  
وفجأة انفتحت بوابة الجحيم .. ما هذا ؟ إن التركيز يتناقص  
بشكل مطرد .. وفى عام 1977 بلغ النقص نحو 40% .. هكذا  
أطلقوا صرخة هلع كونية : نحن نفقد الغطاء الواقى الذى  
خلقه الله لنا .. لقد حدث فيه ثقب يتزايد عاماً بعد عام ! »

ما السبب ؟ أصبح الاتهام الأول توجه نحو الطائرات النفاثة  
التي تطير فى طبقة ( سترatosفير ) .. إن عالمها يطلق لظناً  
من لطرات كل ساعة .. وسبب تفضيلها لهذه الطبقة لها لوى  
السحب وعوامل الجو المتقلبة .. إن الطائرة الفرنسية ( كونكورد )  
بالذات لها سمعة سيئة فى هذا الصدد ، وقد أوقف إنتاجها  
على كل حال ، ولكن لأسباب أخرى غير ثقب الأوزون ...

الإصبع لتلقى قجه إلى غاز (الكلوروفلور كاربون) .. هذا الغاز الذي ينبعث من ملايين زجاجات الإسبراي وملايين أجهزة التكييف .. لقد تم اكتشافه عام 1928 واعتبر وقتها فتحاً علمياً جديداً ، وكان مثقياً لعملية التبريد ، لذا استخدم في ثلاجات والمكيفات .. وهو ما يطلق عليه الفنيون اسم (الفريون) . كما أنه مفيد في صنع الرغويات .. الرغويات التي يحشون بها الآلات ، والإسفنج الصناعي وعبوات الأطعمة الجاهزة والتكيف .. لكن هذا الغاز طويل العمر قد يتجاوز بقاؤه في البيئة قرناً ، لا يكف خلاله عن إطلاق غاز الكلور .. هذا هو ما اكتشفه العالمان (رولاند) و(مولينا) عام 1974 ..

إن كرة كلور واحدة لقارة على تخريب عدد كبير من ثرات الأوزون ، وهي تجسد نفسها من جديد بعد كل تفاعل .. يقول البارون (منخاوزن Munchhausen) - الفشار الأعظم - إنه لصطلد سريعاً من الأوز بحبة قمح واحدة ربطها بخيط ، وألقاها للأوزة الأولى .. ابتلعها وأخرجتها في فضلاتها فابتلعها الأوزة الثانية .. هكذا دواليك .. حتى صار السرب كله كحبات العقد وما كان عليه إلا أن يمسك بطرفي الخيط ! (\*)

(\*) (منخاوزن) كما يستتج القارئ هو (أبو لمة) الفريسي ، وهناك مرض اسمه (متلازمة منخاوزن) حيث يهوى المريض زيارة المستشفيات ليحكى أعراضاً تحير الأطباء ، وربما يصل الأمر إلى إجراء جراحة استكشافية له .. إنه باختصار (إيمان للمستشفيات) أو (إيمان المعطف الأبيض) ..

حسن .. الواقع أن الكلور يلعب هذا الدور بالذات ..  
وهكذا ولد الخوف من كل مفردات الحضارة الحديثة التى  
تبعث هذا الغاز من حولها .

إصبع الاتهام الثالث اتجه إلى الأسمدة وإلى التفجيرات  
النووية ..

— « فى العام 1986 اكتمل هذا الجهد ببعثة أمريكية لوفتها  
(ناسا NASA) إلى القطب الجنوبي .. هذه المرة كفت هناك  
طائرات تجسس ومعدات متقنة ، وقد وجد هؤلاء العلماء  
أن الفجوة فوق القطب الجنوبي تتكون فى الربيع القطبى ..  
ومساحتها هى نفس مساحة الولايات المتحدة الأمريكية ،  
وعمتها هو عمق جبل ( إفرست Everest ) ، بل إن هذا  
التقص امتد ليؤثر فى الأرجنتين ونيوزيلندا وأستراليا .

« فى نفس العام وجد بعض العلماء للكنديين أن هناك  
ثقباً آخر فوق القطب الشمالى .. إنه ثقب أصغر ، وقد  
ذهبت حملة عام 1988 لقياسه فى القطب الشمالى ، فى  
مهمة عرفت باسم Technops .. ووجدت أن هذا الثقب يمتد  
إلى الفروج نفسها ..

« إن الأوزون يتلصص .. هذا ماقلوه .. وهذا يؤدى إلى عدة

كوارث .. كانت الملاحظة الأولى هي انتشار سرطان الجلد وعامة عمة العين بين سكان الهيمالايا .. فى الولايات المتحدة تشخص ستمئة ألف حالة سرطان جلد جديدة بعد كل موسم صيف ، لأن قتلنا - لسبب لا يطمح إلا الله - يحرقون جلودهم تحت الشمس بغية اكتساب اللون البرونزى الجميل ..

« وتقليدياً يؤمن العلماء أن سكان المناطق الاستوائية وحوض البحر المتوسط أقل تعرضاً لهذا السرطان بسبب بشرتهم الداكنة .. السبب الثانى هو أن أشعة الشمس تسقط عمودية على خط الاستواء بينما تسقط بميل على شمال الكرة الأرضية وجنوبها »

هنا قلت بعدم فهم :

.. « معنى هذا أن سكان المناطق الاستوائية يتعرضون لكثير .. »

.. « بالعكس .. الأشعة المائلة تؤذى الأجساد أكثر لأنها تنال منها قسماً أوفر . على كل حال يقول الأمريكيون إن نقصاً قدره 3% فى الأوزون معناه زيادة 18 ألف حالة سرطان جديدة كل عام ! »

صغرت بفمى غير مصدق ، فأردف قائلاً :

- « دعك من تقرر المحاصيل الزراعية .. وموت الأسماك ، فإن السموم التى يطلقها أهل الأرض تؤدى لتركز الأوزون فى طبقة ( تروپوسفير ) ونقصه فى طبقة ( ستراتوسفير ) .. معنى هذا ارتفاع حرارة الطبقة الأولى .. وهذا هو سبب ارتفاع حرارة الجو ، مع ما يسمونه بـ ( تأثير الصوبة الزجاجية Green house effect ) .. الحرارة تكدل ولا تخرج .. حرارة الجو تتزايد .. المحاصيل تموت .. الثلوج تنوب .. الأراضي تفرق .. عنكم فى مصر بلدة ساحلية تدعى ( رشيد ) يعتقد العلماء أنها أول مدينة فى الكون ستغرق فى العصر الحرارى الجديد ... »

قلت له وقد بدأت أقوتر :

- « إن الأمر جد خطير .. أعرف جزءاً مما قلتك لكنى لم أستطع قط تصور أن الخطر قريب وملحوس لهذه الدرجة .. ماذا تقترح ؟ الحقيقة أنك تفعل ما فعله أنبياء العهد القديم .. لا تكف عن تذكير الناس بسوء العاقبة .. وهم لا يصغون »

اجتسم ابتسامة غامضة وقال :

- « أنا أعب دور أنبياء العهد القديم ولكن بشكل معكوس .. أنا أنصح الناس ألا يصغوا !!! »



لم أفهم ما يريد قوله ، فقال وهو ينهض ليطلق الباب  
الذي كان مولدًا أكثر الوقت :

« تركز ملاحظاتي على بعض نقاط مهمة .. هل يوجد  
أي تلوث فوق القطبين ؟ إنهما غير مأهولين بالناس ، فكيف  
تحتشد هذه التلوثات في هذه المنطقة بالذات ؟ يردون على  
ذلك قائلين إن الرياح القطبية تجذب الدوامات الملوثة إلى  
هذين للمكانين ..

« يرى بعض العلماء - وهم يقاتلون وحيدون وظهرهم  
للجدار - أن ثقب الأوزون ليس أكثر من ظاهرة طبيعية تتكرر  
بشكل منتظم .. ومسبب وجوده هو الظواهر الطبيعية فوق  
القطب الشمالي .. لقد كان هناك دائما ثقب أوزون فوق  
القطبين وسيظل كذلك .

« هذه الفجوة تلتئم في الشتاء القطبي ثم تعود للظهور  
مع الربيع القطبي .. فقط لم يرصده أحد من قبل .. لكنه  
موجود منذ الخليقة .. »

كان يتكلم في حمار وهو يجوب المكان .. صيانه تكاد أن  
تنبان من محجريهما ، وطاقة نفسية هائلة تشع منه ، حتى  
بدا لي الرجل الضئيل يتضخم ويتضخم .. وكانت حركاته



توحى لى بأنه يقتل مجموعة من الفرسان الشرسين ..  
 هنا فهمت .. لقد قاتل هذا الرجل كثيراً وهو يعنى هذم  
 الآراء ، وسخر منه الكثيرون حتى صار الأمر أقرب إلى  
 مبارزة يدافع بها عن حياته ووجوده ذاتهما لا مجرد جدل  
 علمى ..

استطرد للرجل ( وكلمة استطرد دقيقة جداً هنا .. تذكره  
 بأيام الكر والفر فى المعارك ) :

« إن غاز الكلور لا يصل لارتفاع 30 أو 40 كيلومتراً  
 ليسبب الثقب المفروض .. ومناخ الأرض لم يتغير .. كيف  
 نقول إنه تغير بينما لم يبدأ تسجيل مناخ الأرض إلا منذ مئتي  
 عام ؟ وكل شيء - فى رأى هؤلاء العلماء المقتنين خارج  
 السرب - يشير إلى أننا نتجه نحو عصر جليدى ثان .. إن  
 ظاهرة ( الصوبة الزجاجية ) لا وجود لها .. منذ ألف سنة  
 كانت جزيرة ( جرينلاند Greenland ) جديرة باسمها الذى  
 معناه ( الأرض الخضراء ) .. ماذا عنها اليوم ؟ إنها أرض  
 جليدية بالكامل ..

« إن أية زيادة فى حرارة الأرض ستؤثرها زيادة فى  
 السحب العكسة لدرجة الحرارة .. إن الاتزان الطبيعى لكوكبنا  
 قلر على تصحيح درجات الحرارة وتصحيح ما يخل فى الجو ..

المادة لا تفنى ولا تستحدث من عدم .. هل نسيت هذا  
للقانون الكيميائى البسيط ؟

« ليس للأوزون دور فعال فى منع الأشعة فوق البنفسجية  
عن الأرض .. الأثرية فى الجو هى التى تلعب الدور الأعظم ..  
لهذا لا اعتقد أن للأوزون دوراً فى منع السرطان إلى الحد  
الذى يزعمونه<sup>(\*)</sup> .. »

رحت أفكر فيما يقول .. يبدو هذا الكلام جريئاً جداً  
ومفتحاً .. لقد نشأت مع (ثقافة الأوزون) وصارت من  
بديهيات عالمى .. الآن يأتى من يقول لى إن هذا هراء ..  
لما لست متخصصاً ولا أستطيع البت فى قضية كهذه .. لكن  
ما دخل هذا فى العمل الذى قام به هنا ؟

قال (لومبان) وقد أخبرته بتساؤلاتى :

« هذا جزء من عملية مسح أقوم بها بنفسى فى أكثر من  
بلد إفريقيا .. والنتيجة المثيرة هى أن حالات سرطان الجلد فى  
بلد مثل (الكاميرون) تتساوى مع بلدان العالم الغربى حيث  
البشرة القوقازية البيضاء التى لا تقى من الشمس .. »

(\*) من بين علماء المصريين ، يضمن الأستاذ الدكتور (جمال الدين  
الغندى) أبو علم الأرصاد فى مصر ، والدكتور (رشدى سعيد) بهذه  
نظرية ثورية .. وهم من الأهمية بحيث لا يمكن أخذ آرائهم ببساطة ..

قلت له في خيظ :

- « أنت تشكك في مبدأ طبي خارج لاختصاصك هذه المرة ..  
أشعة الشمس تسبب سرطان الجلد .. هذا مفروغ منه ، وأنت  
بنفسك ذكرت إحصاءات مهمة .. »

قال في تحد :

- « نعم .. لكن المفترض أن ثقب الأوزون لا تأثير له  
في الكامبيرون .. هنا سمك طبقة الأوزون محترم ولا يمس  
به ، وبشرة الناس سمراء .. المفترض أن تكون هنا أقل  
نسبة إصابات في العالم .. »

ثم توقف عن الكلام وقد أنهكه الاجتهاد ...

ساد الصمت .. وبعد قليل سألته :

- « ليكن .. أنت تفرض أن المشكلة ليست بهذه الخطورة ..  
هل يمكنك أن تفسر سبب إصرار الطماء عليها ؟ »

★ ★ ★

- « لشركات العملاقة ! »

قلتها وكأنما هو قال كل شيء .

أخيراً قرر أن يجلس ويهدأ ..

لنا فكرة نظرية المؤامرة ، وأراها سبباً من أسباب تخلفنا  
 إن لم يكن السبب الأهم .. واعتقد أن تفسير التاريخ بهذه  
 الطريقة نوع من ضيق الأفق .. وللأسف هي تلقى نجاحاً  
 في أية لحظة لأنها تظهرنا بمظهر العلمين ببواطن الأمور ،  
 وتجعل الآخرين يبدوون أكثر سذاجة ..

في الأسواق المصرية تنتشر دواء لأمراض الكبد لا جدوى  
 منه تقريباً ، لو - على الأقل - هو لم يقن ولم يخضع لدراسة  
 علمية صارمة .. عندما تقول هذا تجد من ينظر لك في  
 شفقة ، ويقول لك : أنت لا تفهم شيئاً .. إن شركات الدواء  
 للعلاقة التي تنتج عقار ( الإنترفيرون Interferon ) تبيع  
 من وراءه المليارات ، ويهمها محاربة أى عقار جديد يقلل  
 مبيعاتها . عندها تشعر أنت بالخجل وبأنك كنت طفلاً ساذجاً ..  
 إذن العقار الجديد ليس فاشلاً .. شركات الأدوية للعلاقة  
 ومافيا الدواء هي التي تشيع عنه ذلك .. ولكنك تعود لدارك  
 مع شعور الخجل والسذاجة ، فتجلس وحيداً في غرفتك وتتساءل :  
 لكن ماذا لو كان العقار الجديد بلانفع فعلاً ؟ ألا يمكن أن  
 تكون هناك معجزة ما ويكون العقار الجديد شيئاً ؟ كيف  
 تعرف وقتها ؟

هذا المثال ينطبق على كل شيء في حياتنا ، والآن هذا

الأخ يطلبني بأن أعتقد أن الأوزون مؤامرة من الشركات  
الصلافة ..

قال لي ، وقد لمح عدم التصديق على وجهي :

- « نعم .. إن فترة احتكار هذه الشركات لمنتجات  
( الكلوروفلورو كاربون ) قد قاربت الانتهاء ، وسعر هذه  
المنتجات رخيص متاح للجميع .. هكذا صنعت تلك الشركات  
منتجات باهظة الثمن تفوق سعر الأولى خمس مرات ..  
ودرجت لهُواي الإعلام لتملأ حياة الناس بكلموس  
الأوزون .. والنتيجة أنها ستبيع منتجاتها الجديدة وتربح  
المليارات .. وعلى فكرة ليس هذا رأيي وحدي بل هو رأي  
عالم فرنسي عظيم هو ( تازيف ) .. هناك ثقب أوزون لكنه  
موجود من زمن محقق ، ولم تسببه رشاشات الإسبراي  
التي نستعملها .. ولا خطر منه على البشر .. هذه خلاصة  
أبحاثي .. »

ثم أشار إلى نفسه في نوع من التواضع وقال :

- « وسط هذا الضجيج المتعالى .. من يصدي شخصاً  
مثلني يغرد خارج السرب ؟ ألم أقل لك أنني أعب دور عبيط  
القرية ؟ »

فكرت في كلامه طويلاً ثم قلت :

« نظرية المؤامرة من جديد ولما أكرهها .. لكن سؤالي هو : أنا غير متخصص ولا أعرف مدى صدق كلامك من عدمه .. فكيف تثبت ؟ »

تحصن جانب رأسه وتلوذ ثم قال :

« هذا هو الدليل الأول .. لو كان كلامي بلا قيمة ، فلماذا يتسائل أحدهم ليرى ما أقوم به ؟ لاحظ أن هذه ليست المحاولة الأولى .. »

ما لم يعرفه هو تلك المحادثة بيني وبين ( باركر ) ..  
لماذا كان ( باركر ) مهتماً إلى هذا الحد ؟

\*\*\*

« .. أنت تفهم ما أريد قوله ... إنه يسمح لهذا الفرنسي المجهول بأن يأتي هنا .. يجمع بيانات .. يتفغل في كل شيء .. ثم يسخر نتائج تحمل اسمنا .. أنا أمقت هذا .. »

\*\*\*

« .. أريد تقريراً كاملاً عن المعلومات التي جمعها هذا الرجل ، ومذا يستخلص منها .. أريد معرفة أين يذهب ومذا يفعل .. سيكون هذا سهلاً عليك لأنك مكلف رسمياً بأن تكون ظله .. »

\*\*\*

لو كان ( لومبان ) بالضلال الذي يصفونه به ، فلماذا اهتم ( باركر ) بالأمر إلى هذا الحد ؟  
شخص تقاتل وضربه ...

هذا دليل حقيقي .. لكني لم أر ضربات .. لا توجد آثار .. سمعت عن بعض الطماء الذين يحاولون ادعاء الأهمية بأن يزعموا أن أبحاثهم مبررة لو أنهم تعرضوا لمحاولات اعتداء .. أحدهم في الولايات المتحدة كان يتلقى مكالمات تهديد سجلتها الشرطة ثم اتضح أنه كلف صديقاً بهذه المهمة ..

هل الأمر كذلك ؟

كأنما هو يسمع أفكارى بوضوح قل ( لومبان ) :

« الاعتداء على هو الدليل الأول لك .. لو سمعت أُنسى اختفيت في ظروف غامضة أو قتلت يوماً ما ، لكن هذا هو الإثبات النهائي لصحة نظرياتي .. »

- « سأتذكر هذا وقتها يا سيدى .. »

\*\*\*

مر يومان أنهى خلالها ( لومبان ) عمله ..

صحيح أنني لم أكن ذا عون كبير له ، لكنى على الأقل  
أدخلت بيقاته إلى الحاسب الآلى ، وطلب من ( جرتروود )  
ما يريد .. وفى النهاية أعلن أنه انتهى من هذا البلد ..

قلت له فى لحظة الوداع :

- « أنت تقوم بمسح .. وكما قلت لك سابقاً أنت تستعمل  
أعداداً قليلة .. وحدة ( سافارى ) لا تمثل ( الكامرون ) ..  
ما تقوم به يحتاج إلى تعاون الدولة ذاتها .. يحتاج إلى  
منظمة الصحة العالمية »

قال باسمًا وهو يصافحتى :

- « لن يتعاون أحد معي .. لهذا أقوم بما أستطيع عمله .. »

ولبتعد نحو السيارة التى منتقله إلى المطار ..

قصر القلعة ضخم الرأس ملىء بفكرة جعلته يتضخم عدة

مرات ..



(دون كيشوت Don Quixote) .. الفارس الذى قرر أن يمارس الفروسية بعد انتهاء عصر الفرسان .. خوذة من الورق المقوى وحصان عجوز وتابع أحمق .. ثم يخرج إلى العالم ليواجه الطواحين معتقداً أنهم مرده لشرار .. ما هي فرصة هذا الفارس فى الفوز ؟ ما جدوى ما يقوم به ؟

لا أعرف كيف يبدو (دون كيشوت) .. لكنى فى هذه اللحظة تصوريته فى شكل (لومبان) .. وحيداً متمرداً ضعيفاً عنيداً متمسكاً بفكرة لا تبدو صائبة لأحد ...

كانت هذه آخر مرة ألقاه فيها ..

وحين عرفت بعد عام من المدير أنه توفى فى شقيقته فى باريس ، لم أدهش كثيراً ...

- « كيف مات ؟ »

- « طعنات بسكين .. يعتقد رجال الشرطة أنها محاولة سرقة .. »

- « هل وجدوا الجاني ؟ »

- « لا .. لكن يبدو أنه كان يعرفه جيداً .. »

لو سمعت أنتى اختفيت فى ظروف غامضة أو قتلت يوماً ، لكان هذا هو الإثبات النهائى لصحة نظرياتى ..

\*\*\*

( دون كيشوت ) قد لقي حتفه .. فهل سرعته الطواحين  
لتى ولجها بحماقة ؟

لم أن الطواحين لم تكن كذلك ؟ كانت مرده لشراة  
بالفعل .. وقد قتلوه ؟

هل كان مجرد واهم بالى مات فى حادث سرقة سخيف ،  
لم أنه كان عبثياً أو شك أن يغير حقائق العالم ومن ثم تم  
التخلص منه ، على طريقة ( إيكاروس Icarus ) الذى ذابت  
أجنحته لأنه التقرب من الشمس - الحقيقة - أكثر مما يجب ؟  
إن أعرف الحقيقة لهذا ..

كل ما أعرفه هو أن بيتنا فى خطر .. علينا أن  
نحميها .. بثقب أوزون أو بدونه .. نحن أنهكتنا فى قرن  
واحد موارد هذا الكوكب الجميل ، وقد صار علينا أن نأخذ  
حذرننا أو ندفع الثمن غالياً ...

\*\*\*

# الدائرة الأولى

## ثقب في الكون

2

إليها الأشعة السينية!

هذا هو الحل الذي يبرهن على نظرية (ويلر) الخاصة بالثقب الأسود ..

لقد أطلقت وكالة (ناسا) مرصداً عملاقاً إلى الفضاء ، يلتقط صوراً للكون .. بالأحرى يلتقط صوراً للغاز النجمي الذي يخرج من نجم هراق ، متجهاً إلى بقعة خلفية غامضة ..

قال (ويلر) وهو يتأمل الصور :

- « تصور كتلة ازدادت جاذبيتها إلى حد مروع .. إلى حد أن النرات تتحطم لتكون كتلة ذات كثافة لانهائية لها .. لقد كان النجم ضخماً إلى حد أن جاذبيته الخاصة هي التي سحقته .. صار صغيراً جداً وانتهى إلى أن صار (لا شيء) !  
لقد تنبأ (اينشتاين) بهذا ، لكننا للمرة الأولى نبرهن عليه .. »

سأله أحدهم :

« ولماذا ينجذب الغاز نحوه ؟ »

« كل شيء يقترب من الثقب الأسود يدخل في دائرته ..  
يصير في نفوذه .. حتى للضوء لا يستطيع الفرار منه لذا  
لا نرى الثقب الأسود .. »

بالفعل تزداد الثقوب السوداء نجومًا بأكملها .. إنها تشبه  
البللوعة التي تمتص مجرات كاملة .. وخارج المجرة توجد  
نقاط غامضة يطلقون عليها اسم ( كوازار Quasar ) ، هي  
على الأرجح ثقوب سوداء تمارس في نشاط عملها في  
ابتلاع مجرات كاملة .. ولهذا الاتهام صخب تلتقطه أجهزة  
الاستماع كقوة بالفعل صوت تماسيح تلتهم فرائسها .. لن  
أدهش لو تجسأ أحد هذه الثقوب يوماً لو تقياً ..

والفكرة على كل حال تصيب بالدوار .. الكون الذي  
نعرفه يتم امتصاصه إلى حفرة عظمى ، وعالم الفلك  
الأمريكي ( هيرت جوردسكي ) يقول :

« ربما كان للثقب الأسود النهائي هو الكون ذاته .. »

هناك مراحل للعملية يعرفها العلماء وعشاق الخيال  
العلمي .. القزم الأبيض .. النجم النيوتروني .. إلخ ...

سأل أحد الطلبة أستاذه ( وينر ) :

- « وما دور أشعة ( إكس ) هنا ؟ »

قال ( وينر ) وهو يتأمل إصبعه المبتور :

- « نحن لا نرى الريح لكننا نرى أثرها على الأشجار ..

كذلك نحن لا نرى النجم الأسود لكن نرى أثر جاذبيته ..

وأشعة إكس قادرة على مسح الفضاء بدقة ، فتري

للتجوم التي تسير في مسار مترنح يوحى بأن شيئاً ما

يجذبها .. ثم يتم الامتصاص .. تصور نجماً يقوّم في

نجم آخر .. هذا الاصطدام المخيف يولد حرارة قدرها

خمسمائة مليون درجة مئوية .. ينطلق من الاصطدام

فيض من أشعة إكس .. هذه الكمية الثمينة من

الإشعاع لا تصل للأرض لأن غلافنا الجوي يمتصها ..

لهذا نطلق المراصد إلى الفضاء لتصور المشهد الكوني

الرهيب .. »

(أوهورو) ينطلق !

(أوهورو) - أو الحرية باللغة المصاحفية - ينطلق من  
(كينيا) عام 1970 ليكون أول مرصد فضائي لأشعة إكس ..  
وهكذا يلتقط المرصد أول إشارات مبنية من كوكبة  
الدجاجة .. تلك الإشارات التي سيطلق عليها فيما بعد اسم  
(كوكبة الدجاجة إكس 1) ..

هذا هو أول ثقب أسود يتم رصده ..

لقد تنبأ (أينشتاين) بأن جاذبية الكون ستتزايد يوماً ،  
وينتهي الأمر بالكون إلى الانكماش .. ليس الكون فحسب  
بل للزمن والفضاء ..

علماء آخرون يدعون أن الكون لن ينكمش لكنه سيقرب  
في أحد هذه الثقوب السوداء ..

إلى أين ؟

لا أحد يعرف ...

هل تكون هذه الثغرة هي العمر الذي يقود إلى كون آخر  
بمقاييس فيزيائية أخرى ، كما تنبأ (براهوري) في رائعته  
( 2001 : أوديسة فضائية ) ؟

لا أحد يعرف ...

ربما يعرف الحقيقة أحفاد أحفاد أحفاد أحفاد أحفاد  
أحفاد أحفادنا ..

وربما تقوم الساعة غداً .. وينتهى الكون كما نعرفه ...

★ ★ ★

## خاتمة

مررت على (بسم) في غرفته ، فوجدته جالساً على  
الفرش يكتب خطاباً ما ..

فلما رأيته سارع بإخفاء الورقة تحت الدفتر الذي يمتد  
إليه ، وابتسم في حرج ...

سألته متظاهراً بأنني لم أر ما حدث :

- « هل تشعر بتحسن ؟ »

- « بالتأكيد . »

وأشار إلى الفتاة الوريدية المثبتة إلى ظهر يده ، وقال :

- « لو شئت على انتهاء حقن المضاد الحيوي .. لا أعرف

إن كنت أتعنت حيالي أم لا ، لكنني لك شاكر .. »

قلت له في تواضع :

- « لم ألقِ حيالك .. فقط أنقذت من العصى أو الشلل

لو تزف الكلى .. »



ثم سألته لأغير الموضوع :

- « إذن نتيجة المزرعة قد ظهرت .. »

- « وماذا كنت تتوقع ؟ كانت هناك عدوى بكتيرية في  
لحمي .. وقد وجدوا الجسيمات الدقيقة المستتبّة في قلبي ،  
بعثوا لخدموا ذلك المسبر المثبت إلى منظار .. لقد كان  
تشخيصك دقيقاً .. »

تشخيصي دقيق ! أنا أسمع الكثير من المديح لكني لم  
أسمع الكثير من الإطراء لمستواي العلمي .. هذا شعور  
خير معتاد .. كان المايسترو الإيطالي (توسكاتيني) مغروراً  
بفنه ، ويصفى لكل من يمدح قيادته للفرقة بملل .. كأنه  
يقول : ليكن .. أنا أعرف مستواي أفضل منك .. لكن إحدى  
السيدات أطرقته ذات مرة فاحمر وجهه خجلاً ، وطار من  
الفرح .. سألوا السيدة عما قلته له ، فأجابت : قلت له إنه  
وسيم !

نعم .. كان الرجل يعرف مزاياه جيداً حتى مل من  
يمدحونها .. أما السيدة فحالت له الإطراء الوحيد الذي كان

يتعناه .. والذي لم يسمعه قط ، لأن المجنون فقط يمكن أن  
يصف (توسكاتينى) بالوسامة ..

الآن أنا أسمع من يقول إننى طبيب بارع حقاً ، ولطالما  
تمنيت لو سمعت هذا الإطراء ، بدلاً من : أنت ظريف .. أنت  
مثيركس .. أنت ملىء بالحيوية ..

سألت (سام) :

- « اعتقد أنك بعد هذا الخطاب ستسمى كل شيء عن  
الثقب ؟ »

سألتنى فى براءة :

- « أى خطاب ؟ »

- « خطاب الحب الذى تكتبه لـ (حبيبة) .. »

ومددت يدي فانتزعته من تحت اللتر ولوحت به أمام  
عينيه فصاح محتجاً وانتزعته من يدي .. قلت له :

طبعاً وصلت لها معلقتك وعذابك ، وكيف كنت  
تواجه الموت لكنك ترى صورتها فتهلل .. أو كما يقول  
(عشرة) :

ولقد نكرتك والرماح كلها .. لشيطان بر فى لبنان الأدهم

قتل فى خيظ وهو يعود تخيلة للخطاب :

- « نعم .. نعم .. شىء من هذا القليل .. بالمناسبة استصحت

هذا البيت من الشعر بالذات .. »

- « بعد هذا مستحى كل شىء عن الثقب ؟ »

نظر لى فى حيرة وتماعل :

- « أو ثقب ؟ »



فى التاسعة مساءً انتهت د. (ماى فاى لين) من  
الجراحة ...

ركعت جوار المحطة التى كانت (برنات) ترقد عليها ،  
ومدّت يدي لأمر أصابعي بين خصلات الشعر الأشقر  
الحبيب .. كنت طفلة حباتى أملت الشعر الأشقر .. لكن كان  
هناك استثناء واحد بالنسبة لى ...

ركعت جوارها وثبتت كفها الباردة فتأوهت ولادرت  
رأسها إلى الجهة الأخرى ..

مرت بجوارى الطبية الصينية ، وهى تلهث ونزعت  
فمها وألقت به أرضاً .. تحصست نبض ( برنات ) ثم  
قلبت بفرنسيته العجيبة :

.. « هو يكون بخير .. هو يكون بخير .. »

لقد استغرقت عملية التفريغ عشر دقائق بالضبط .. إن  
هذه الصينية بارعة .. أعرف هذا ..

منذ ساعة انفتحت بوابة الجحيم .. بعد حالة التحسن  
الوقسى التى مررنا بها ، دخلت ( برنات ) الحمام لتفاجأ  
بأن الأمور خرجت من السيطرة .. الإجهاض المنقر صار  
حتمياً ...

لا أعرف كيف اتصلت بـ ( مافارى ) لتأتى السيارة ،  
ولا كيف حملتها حملاً إلى غرفة الجراحة .. تم كل شيء  
خلال ثوان .. جاءت د. ( ماي فاى لين ) وفحصتها بسرعة  
ثم هزت رأسها .. لقد أعلن الرحم عصيقه فلا بد من  
استكمال العملية ..

وقلت خارج غرفة للجراحة أرتجف ..

وجاء ذلك للطبيب الأمريكى الودود الذى أخبرنى بالقصة  
أول مرة ، ليربت على كتفى وقال لى :

- « لا تحزن .. أنت شاب وهناك فرص أخرى .. »

تذكرت أمى حين كانت تصف لى شبابها : إن فتيات اليوم  
مسللات .. بعد زواجى من أبىك لم أكن وحدى مرة واحدة ..  
إما أن أكون حبلى أو أعالج من الإجهاض .. الفلاحة تلد  
وهى ذاهبة للمسوق لبيع الخضر ، لهذا تلف الوليد جيداً ،  
ثم تواصل طريقها للمسوق وتبيع الخضر برغم كل شيء ..  
ثم تعود فى نهاية اليوم لبيتها حاملة فى ( المشنة )  
الوليد وحصىلة ما يباعته .. خذ عندك فتيات اليوم  
- مثل ( الهاتم ) التى ستقع فى غرامها يوماً - الثلاث تلد  
لواحدة منهن طفلاً وحيداً مهزولاً قتملاً للنسب صراخاً ،  
وتطلب أن يقدروها أثناء الولادة ، وتقضى حياتها تلوم  
زوجها على أنه كان سبب عذابها .. وتقسم على ألا تلد  
طفلاً ثانياً أبداً ..

كنت أقول لها مداعباً : هل تفتريهين أن تتزوج فلاحاً  
إن ؟

فتقول وهي تتكلمني في كفتي : هل تتزوج واحدة قوية  
مثل أمك .. تتزوج امرأة ( رجلاً ) ..

نعم هناك فرص أخرى .. ما زلتنا شاهين لحسن الحظ ...

من رحمة الله بنا في هذه الظروف أن قلبي على  
( برنغت ) قلبي على كل حزن يمكن أن أشعر به فقد  
الطفل .. بل إن شعوري بهذا القلق أو إظهاره ليعكس قدراً  
لا بأس به من الأنانية .. كلني أقول : فتذهب هي إلى  
الجحيم لكنني أريد طفلاً !

بدأت تنقري ..

كنت منها وأمسكت بيدها الباردة الباردة ..

كنت دامة العينين ...

قلت همساً :

« متسلطة يا ( علاء ) .. كنت تتمنى أن تحقق حلم الأبوة ،  
لكني لم أستطع أن أحققه لك .. »

رفعت إحدى تشقتها أمراً :

« لصمتي يا حقاؤه .. »

ولم أتكلم .. إن الكلام يفسد هذه الأمور .. لقد وصلت رسالتي كاملة من دون أن أكتب بحرف واحد ..

\*\*\*

وعندما جاء المساء خرجت إلى الشرفة خارج غرفة ( برتاني ) في وحدة ( سطراري ) ..

كأنت نائمة ، وكنت قد قررت أن أمضي الليل معها هنا ..  
 ورغم أن الطيبة الصينية قالت إن يوسف الرحيل لو أوفنا ،  
 إلا أنني خشيت أن يحدث شيء في الليل ..

الليل الإثري وضوء المصابيح ..

ولكن ...

لماذا أبكى وأنا تعلمت لغة الجنين بسهولة ؟ لا أحرف ..  
 أشد ما يفرغني هو البكاء الذي لا سبب له ..

وشعرت بأن فى روحى ثقبًا .. ثقبًا يتسع .. ويمتص كل  
فكرياتى وحياتى وأحلامى ..

وبنت لو كان شخص أعرفه بقربى .. أحكى له كل  
شئ .. أقص عليه حكاية الثقب ..

ونظرت إلى السماء ..

هناك ثقب فى الكون .. ثقب أسود يمتص المجرات  
والعوالم كاملة .. يمتص الزمن ووجوهنا نفسه ..

هناك ثقب فى الأوزون تمر من خلاله الأشعة القاتلة إلى  
عالمنا .. أو لربما لم يكن ...

ثقب فى قلب (بسام) يحكى عنه لحييته فى تونس ،  
بلهجة أقرب إلى الفخر ..

ثقب فى جيبى جعلى لؤذى (برنات) وجعلها تتحمل آلامها  
لترضينى ..



ما معنى هذا ؟

كل هذه الثقوب لها معنى لكنى لا أستطيع الإمساك به ..

ما قيمة ثقب فى قلب أو ثقب فى جيب أو ثقب فى حياة كاملة ، وما أهميته أمام ثقب كونى عملاق بهذا الحجم ؟  
ربما هذه الثقوب ليست عيوبًا فى حياتنا .. ربما هى حياتنا ذاتها ..

علينا أن نقبلها .. أن نحبها .. كما هى ...

ثمة معزوفة كونية رائعة بالغة التناسق .. فمن يأتى بتفاهتك الصغيرة وإحباطاتك الدنيوية ، بينما الأقزام البنية والبيض والمادة المظلمة والثقوب السود تعزف ملحمتها العظمى ؟؟؟

سوف نملأ الدنيا صخبًا وتلوثرًا ثم نمضى ويأتى من بعدنا ..

بينما الكون يتحرك لغاية عظمى ..  
 كنت أتمنى أن أحرف أكثر .. أن أتكلم أكثر ...  
 لكن هذا للأسف خارج نطاق عملنا هنا في (سافاري) .

\*\*\*

د . علاء عبد العظيم

( أنجوانديري )



سافاري

مغامرات طبيب شاب يجاهد  
لكي يظل حياً ولكي يظل طبيباً

روايات  
مصرية  
الحبيب

# حكاية ثقب

لا لن نتكلم اليوم عن وباء مخيف يجتاح الأدغال ،  
ولا حملة معقدة تربتها وحدة ( سافاري ) ، ولا عن  
البحرة الإثريين المتوعدين بالويل .. لن نتكلم  
عن ظاهرة غامضة ولا طقوس وثنية منسية ..  
القصة اليوم أبسط من هذا بكثير .. إنها حكاية  
ثقب ..



د. احمد خالد توفيق

العدد القادم  
قصصات

الذين في مصر  
وبالعالم بالدولار الأمريكي  
في سائر الدول العربية والعالم



مطبعة  
المؤسسة العربية الحديثة  
الطبع والتوزيع  
2001100 - 2001100 - 2001100  
القاهرة - مصر